

لِعْنَدِ الشِّيْخِ بَانِي

دَرَاسَاتٍ فِي الْعَتَائِدِ

الرَّاسَالِيَّةُ - اِلْإِشْرَاعِيَّةُ - السَّبُوعِيَّةُ - الصَّرَبِيُّونِيَّةُ

مَكْتَبَةُ النَّهَضَةِ - بَغْدَادُ

دَارُ الْكَاتِبِ الْعَرَبِيِّ - بَيْرُوْتُ

لِعْنَدِ الشِّيْخِ بَانِي

دَرَاسَاتٍ فِي الْعَتَائِدِ

الرَّاسَالِيَّةُ - اِلْإِشْرَاعِيَّةُ - السَّبُوعِيَّةُ - الصَّرَبِيُّونِيَّةُ

مَكْتَبَةُ النَّهَضَةِ - بَغْدَادُ

دَارُ الْكَاتِبِ الْعَرَبِيِّ - بَرْوَتُ

دراسات في العقائد

الاهداء

إلى أخي وصديقي

الدستاذ الكبير فدرى فلنجي

العَفَافُ لِلْمُنْهَقِينَ

١ — مدخل

إن القيمة الحقيقة لكل عقيدة ، إنما تتمثل في المذهب الأخلاقي الذي توقفه داخل الإنسان غريزةً وفطرة وسلوكاً ، فليس المهم في العقيدة أن تبدل شكل الدولة وتغير نظام المجتمع ، بل إنما المهم المهم هو في أن تصوغ داخل الفرد شكلاً ونظاماً أخلاقيين ، وذلك لأن العقيدة شيء متحرك ، وهي تستمد حياتها من سلوك الإنسان ، وحركتها من ممارسته لها . ولما كانت الأخلاق هي وحدتها التي تنظم السلوك وتنظم الممارسة ، لذا فإن توطيد العقيدة وسلطانها ، أو تهافتها وزواها ، يتوقفان كلياً على مدى انسجام العقيدة وجوهر الأخلاق الثابت وغير المكتسب ، أو على مدى تعارضها وقواعد هذا الجوهر ، فالأخلاق كما أكدت الأحداث التاريخية هي وحدتها الروح والطاقة لكل عقيدة ونظام ، علماً بأن الأخلاق لا تذعن أبداً للحواس ولا تستسلم لها ، إذ أن مهمتها الأساسية هي السيطرة على هذه الحواس وترويضها وجعلها منتظمة متسقةً والنظام الأساسي الذي ينظم الكون الكبير في كل مخلوقاته وكواكبها وانظمته الشمسية و مجراته وانهار مجراته ، لذلك فإن جوهر الأخلاق الثابت غير قابل للتأثير بأي عامل اقتصادي أو اجتماعي أو سياسي ، بسبب كونه فوق كل هذه العوامل ، أو بالآخرى الناظم لهذه العوامل والمقرر تبني أو اطراح بعضها أو كلها أو خلق عوامل جديدة ، بقية الحفاظ على التناسق والانسجام والتناغم بين حياة الإنسان على هذا الكوكب وبين النظام الأساسي الذي ينظم الكون الكبير ، لذلك

فان الاخلاق قواعد كونية ثابتة لا يجدها مكان أو زمان ، ولا يترجمها ظرف ولا يفسرها وضع ولا تبررها أوضاع ، فهو جوهر الكون ، فهو ازلي أبدي ، وقاعدة اساسية ، لا بل القاعدة الاساسية لنظام الكون الكبير المتناسق المتناغم ، هذا النظام المنتظم والناظم لسلوك كل ما في ومن في الكون وممارسته . لذلك فكل عقيدة لا ترتفع بعذهبها الاخلاقي إلى المستوى الكوني تسقط وتنهار ، وتعجز عن ان تستولد حضارة تقترب بالانسان الى جوهر الوجود للكون ومسبياته ، وقد صدق الفيلسوف الالماني « عمانوئيل كنت » Kant عندما قرر أن الانسان لا يستطيع الا عن طريق الأخلاق ، والأخلاق وحدها ، أن ينفرد الى الایمان بالله ، أو بالأحرى أن يربط وجوده بوجود الكون ، ويوفق بين سلوكه ونظام الكون ، لذلك فان كل عقيدة أصلية ثابتة الجوهر ، لا يمكن لها ان تنافي الدين أو تتعارض معه ، أو تنبذ الایمان بالله ، لأن الله كما اؤمن ويقول « كنت » Kant هو نموذج الكمال والعلة الوحيدة القادرة على إيجاد الخير الأسمى الذي يشعر العقل العملي ، أي التفكير الاخلاقي ، بوجوب تحقيقه للانسان . وقد صدق « غوتiéه » عندما قرر بان الكون هو « النسيج الحي للابدية » . زد على ذلك ان النفس العربية ، بصورة خاصة ، إذا ما امتازت بشيء ما ، فاما تمتاز بحنينها الدفتاق الجارف الى المطلق ، وبرغبتها الضاربة في تجاوز ذاتها وتجاوز كل ما يقع داخل نطاق الحسن والحسناوات ، وهذا هو السر الكامن وراء جبروت تلك الانطلاقات الصاعقة في سرعتها ، تلك الانطلاقات التي بدأت بمحمد وانتهت عندما أصبحت المظمة الانسانية ، كما يقول « شينجل » تقاس بالباع والذراع ، وتقدر بالقسطار والدينار ، بعدما كانت تقاس بما لا يحسن به من الاخلاق والمناقب .

نعم لقد انتهت عندما أصبحت الحواس ناظماً للعقيدة والمنفعة دستوراً للمهارة ، وأمسى التوق إلى الرغيف ، لا إلى الكون ، شغل العرب الشاغل ، وصارت الحياة وسيلة الى العيش ، بعد ان كان العيش شيئاً من وسيلة الى الحياة . وهنا مات كل حافز الى ممارسة الفضائل الكونية ، فالفضائل كما يقول

« افلوطينس » هي « حركة النفس نحو الله ، والجمال هو النفس الحية أو الالوهية غير المنظورة في الاشياء ، وانها غلبة الروح على الجسد والصورة على المادة والعقل على الاشياء .. »

لذلك فإنني اؤمن بان مهمة الدولة العقائدية إنما تتركز على بعث الجوهر الاخلاقي في الفرد وسيادة هذا الجوهر في المجتمع ، لهذا فان مفهوم الحكم اليوم هو في حقيقته مفهوم تربوي اكثر من كونه أي مفهوم آخر ، فلم يعد هناك في هذا العصر الثوري ، هذا العصر الذي أخذت فيه الاعناق والابصار تشرئب الى الكون الكبير ، من قائد او زعيم قادر على ان يستمد قوته الایحائية من سحر شخصي او من إستفار غرائزى للجماهير ، بل إنما أصبح المتبوع الاوحد لقواه يتمثل في قدرته على تفجير الطاقات الاخلاقية الخلاقة في نفس الانسان والامة ، وخاصة في امة كالامة العربية التي تملك كما يقول عنها البانديت نهرو « غريرة اجتماعية سامية تقدسها اعظم تقديس » ، وذلك لاعتقادها بان ما من بناء اجتماعي يتمركز إلا على أساس الإرادة العامة ، لا على الرغبة المستبدة ، ولا على التنظيم المتشابك الذي لا يستقر إلا بعد أن تعيid الاجيال نظرها فيه مراراً وتكراراً . وصدق ابن خلدون ايضاً حينما قال : « ان العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينية من نبوة أو ولادة ، أو أثر عظيم من الدين على الجماعة ... والعرب اسرع الناس قبولاً للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملوك وبراءتهم من ذميم الاخلاق .. »

وصدق لورنس حينما وصف العرب في كتابه المشهور « أعمدة الحكمة السبعة » فقال عنهم : « انهم يمكن ان يقادوا إلى نهايات الارض ، على أن يكون قائدتهمنبياً ذا رسالة .. »

من كل ما أوردته آنفاً بحثاً وأمثلة ومقتبسات وددت ان أبرز الحقائق التاريخية التالية :

- ١ - إن قيمة العقيدة إنما تقدر بقيمة المذهب الأخلاقي الذي تستخلصه من فطرة الإنسان الحيرة وتجعله ظلماً للمجتمع وقانوناً للدولة ودستوراً ل الإنسانية .
- ب - إن الأخلاق قوانين حديدية يجب أن تنتظم ، داخل نفس الفرد والأنسان ، البيئة والمجتمع والدولة والانسانية والكون الكبير ، وان الأخلاق - الإنسان هي بمثابة الآلة المتناغمة الالحان والآلات الموسيقية الأخرى التي تعزف منذ الازل وإلى الأبد ، تلك الموسيقى الرائعة المسأة بالكون .
- ج - ان كل عقيدة تتنازل او تلبي الميتافيزيكا ، إنما تتنازل وتبذل الأخلاق ، وتحتقر الكون الكبير الممثل والمائل في الفرد الانسان ، لذلك يتوجب ان يكون لكل عقيدة لا هوت لا أيديولوجية .
- د - إن الحضارة ، كما يقول برثارد شو ، الفابائي المعروف ، تحتاج إلى دين ، وإن حياتها أو موتها يتوقفان على ذلك ، والحضارة إنما سقط ، كما يقرر المؤرخ الكبير أرنولد تويني ، في اللحظة التي تكون فيها قوة « الإنسان » أشد من قوة الدين .
- ه - ان تاريخ الانبعاث العربي السابق قد دلل ، بما لا يقبل الشك ، على ان كل عقيدة ترسد ان تسيطر على النفس العربية ، عن طريق تنظيم الامور المعيشية فقط ، وامال الجوانب الروحية ، هي عقيدة منبودة ، سلفاً ، شكلاً وموضوعاً ، لأنها تتعارض والقواعد السليكلوجية الأساسية للنفس العربية ، هذه القواعد الممثلة في الإباء والنخوة والشame ، والمنفورة على الديمقراطية المباشرة ، والهاتكة لكل ستر يفصل المحكوم عن الحاكم ، والمواطن عن الرئيس : لذلك فإن النفس العربية ، هي من ذاك النوع الذي لا يقايس على حرفيته برعيف .
- و - اني أؤمن عميق الإيمان ، وأيماني هذا ليس قضية ارادية كما يعتقد

جون بول سارتر بالإيمان، بأن الأمة العربية هي الأمة الوحيدة القادرة على أن تقدم للإنسانية على ظهر هذا الكوكب رسالة كونية خالدة ، وهذه الرسالة تمثل في إعادة التوازن داخل الإنسان بين ضميره وعقله وحواسه وذلك عن طريق أخلاق إنسانية أصيلة ، فلقد ثبت تاريخياً أن الحضارة إنما تنهار حيناً يختل هذا التوازن ، فإذا ما سيطر العقل وحده على الإنسان ، وصارب الاعتبارات الضميرية ، فعندئذ تسيطر مباشرة الحواس على العقل والأنسان معًا ، لأن الحواس هي طريق العقل إلى النشاط والعمل ، إذن الحل الحقيقي للمشكلة الإنسانية لا يمكن ابداً أن يتم عن طريق إقصاء الاعتبارات الضميرية عن هذه المشكلة ، بل إنما يتم إنما حيناً تسيطر الاعتبارات الضميرية على هذه المشكلة ، ويترك لها وحدها حرية التصرف والعمل ، فالضمير هو وحده ذلك الميزان الذي يجب أن توزن به جميع استنتاجات العقل ونوازع الحس ، وعندما تأخذ من الضمير ، الذي هو من الأخلاق بثابة مركز دائتها ، ميزاناً لنا فعندئذ لن نسقط ابداً ، وقد صدق جان جاك روسو حينما قال :

« إننا نسأل الله لماذا خلقي ضيقاً بهذا الشكل ، فتجيبنا ضمائراً : إنما خلقت أضعف من أن تقوى على إنقاذ نفسك من الهوة لأنني خلقت أقوى من أن تسقط فيها . »

غير - ليس هناك في العقائد او السياسة المتوجهة تنفيذ العقائد وتجسيدها في المجتمع من أخلاق مثالية وآخرى واقعية ، بل إنما هناك أخلاق وآخلاق فقط تتجاوز كل الظروف والاعتبارات وال الحالات من آنية وطارئة ، لأنها ترى فيها اعراض مرض ، وعوارض داء ، فالغاية لا يمكن ، لا بل لا يجوز ابداً ان تفصل عن وسائلها ، كما ان الجريمة لا يمكن لها ابداً ان تكون وسيلة من وسائل تحقيق او تحقق مثل

اعلى ، فالأخلاق التي تسلّم للظروف والحالات ، تعجز ابداً ودوماً عن ترويضها او تبديلها ، وتنسي في النهاية صحيتها وفريستها ، وقد قدم لنا التاريخ كثيراً من العصور الضخمة والمعدمة من العظمة ، لأنها معدمة من الأخلاق ، ووجدنا ان معظم الالامين من ابناء تلك العصور كانوا اذكياء لأخلاق لهم ، قادرين لا ضمير لهم ، شجعاناً مجردين من النخوة والشame والشرف ، لقد اسوا دولاً وبنوا امبراطوريات ، لكنهم عجزوا عن بناء الانسان ، فدالت دولهم وانهارت امبراطوريتهم ، ولم تبق منهم سوى آثار لتشهد على ما تستطيع الحيوانية ان تتجزء من اعمال مروعة سوداء دامية ، فدخلوا صفحات التاريخ كأنهم علامات تحذير وانذار للإنسانية من ان تسلّم ، مستقبلاً ، لأمثالهم ، قيادها ، وكان هؤلاء فلاسفة الاخلاق الواقعية وشياطينها .

ان ما تسمى بالأخلاق الواقعية ، إنما هي الوجه الحقيقي الكالح للعدمية ، المؤمنة بان اليوم لا غد بعده ، وان الحياة تنتهي عند عتبة القبر . وكم يبدو الانسان حقيراً تافهاً ، اذا ما أقام دستوره الاخلاقي الناظم لسلوكه ومارسته والحافز لهاته وحيويته ، على اساس ايهانه بان حياته بدأت بعملية جنسية قام بها والداه ، وتنتهي في غياب اللحد !؟ عندئذ لن تكون الحياة البشرية اكثر من ملهاة عابثة ماجنة خطها قلم عدي مجنون .

٢ — الأخلاق والحضارة الغربية في معسكريها

إن المتمعن في الرأسمالية والشيوعية معاً ، ليجد أن كلتا العقائدتين إنما تبعان من نبع واحد هو النظرة المادية الى الحياة . ومع أن الشيوعية تعتبر «

والحق ، ثورة على الرأسمالية في حقول الاجتماع والاقتصاد والسياسة ، لكنها تتفق وإياها في حقل الأخلاق ، فكلتاها تدينان بـ مذهب الأخلاق الميكافيللي ، وكلتاها تارسانه ضيراً وعقلاً وفعلاً ، ولا غرو في ذلك ، إذ أن الشيوعية والرأسمالية خاضعتان خضوعاً كلياً للحواس ، وإن كانت الشيوعية تهدف ، كما تقول ، إلى إشباع حواس كل فرد من البشرية (لا الإنسانية) ، بينما أن الرأسمالية تتوكى إشباع حواس طبقة واحدة . فالرأسمالية تستهدف أن تستأثر بالربح لأبناء طبقتها ، بينما أن الشيوعية تستهدف أن تعيد فائض القيمة - أي الربح - إلى المنتجين الحقيقيين ، أي العمال (وال فلاحين) . إذن فهدفها واحد وغايتها واحدة ، ألا وهو الربح المترجم نقداً وعقاراً وأمور عيش . ولما كانت كل المقدمات المنطقية تقول بأنه في حالة تمايز الأهداف والغايات ، فعندي تمايز أيضاً الأساليب والوسائل للوصول إليها ، ولما كانت أيضاً الأساليب والوسائل هي في واقعها الاجتماعي ، إنما تتبئ عن أخلاق اصحابها ومامايتها ، لذلك فان كلتا العقيدتين تدينان بمذهب أخلاقي واحد ، وإن كان مذهب الشيوعية الأخلاقي أوسع شمولية في تأمين الرغد ورفاه العيش ، كما وإن كلتا العقيدتين ملحدتان لا تؤمنان بالمتافيزيكا ، وإن كانت الرأسمالية تؤمن الجماع والكنائس والكنيس ، أما الشيوعية فهي تفخر بالحادها ولا تخفيه ، ولا غرو في ذلك فكيف يريد من يؤمن بالارقام وينبذ كل شيء لا يدخل صندوقه أو معدته ، أن يؤمن بكلون كبير أو بدين أو باله ، ولذلك كله انهارت الرأسمالية أم سيطرت الشيوعية ، أو العكس بالعكس ، فان المشكلة الإنسانية تبقى دون ما حل ، لأن المشكلة الأساسية هي مشكلة اخلاقية متافيزيكية ، مشكلة أحد عناصر حلها هو الوجود المادي ، وليس هذا الوجود هو كل عناصره او مفتاحه . زد على ذلك أن الأخلاقية المادية في شقيها الرأسمالي منها والشيوعي ، سينتهي بنها في آخر المطاف ، إلى نتيجة واحدة ، وهي الابقاء على القلق الروحي الذي ما يزال الإنسان يعانيه منذ أن عرفت الحضارة الغربية في مطلع القرن الخامس

عشر طرقها إلى الوجود . فالأخلاقية المادية هي من الوجهة اللاهوتية أخلاقية انعزالية ضيقة ذات أبعاد ثلاثة ، وإن كان بعدها الثالث ، ارتفاعاً أو عملاً ، يأبه حق هذا اليوم أن يتتجاوز طبقات الجو العليا ، في وقت أخذ العلم يتتجاوزها فعلاً وواقعاً ، وهذا بدأ العلم اليوم يجاهد ليندمج في الأخلاق ويذوب فيها .

والعلم كما نعلم جميعاً ، يبدأ إلهاً ضبابياً غامضاً ثم يصبح علمًا يخضع للحواس والارقام ، لذلك كانت الأخلاقية المادية تعامل مع الجدول لا النبع ومع الظل لا الأصل . زد على ذلك أن جميع مقاييسنا المعنوية والمادية والزمنية قد قررتها وفقاً للنظام الشمسي الذي يتبعه كوكبنا ، ووفقاً للظروف الحياتية التي نشأت منها وتطورت وفقها الحياة على هذا الكوكب ، وهذا ما يقول به جميع الفلاسفة الماديين الحديثين ، من داروين إلى ماركس والإنجلز وفرويد ، وهذا ما يعني أن الإنسان سليم الإرادة الحرة ، وأن دوره في الوجود لن يتعدى أبداً دور المنفعل والمتفاعل مع هذا الوجود ، إلى دور الفاعل فيه ، لأنه جوهره وضيئره . واليوم وقد أصبحنا نقف على اعتاب الكون الكبير ، يتوجب علينا أن نعيد النظر في جميع المقاييس والقواعد التي عرفناها وقبيئناها ، وذلك إذا كنا حقيقة صادقين بأن كوكبنا ليس هو وحده الكون ، بل أنه ذرة رمل من رمال محيط لا حدود له أو شواطئه ، زد على ذلك أن إينشتين نفسه قد قرر أن جميع القوانين والقواعد العلمية المألوفة لدينا لا تصلح للتطبيق على الكون الكبير . لذلك فالأخلاقية المادية في شقيها الشيوعي منه والرأسمالي لا تستطيع أبداً أن تسند الإنسان وهو يرد في هذا العصر بحرأة وشجاعة على تحدي الكون له . وقيمة العقيدة كما قلت آنفاً ، إنما تتمثل في التأييد الذي يستمد منها الإنسان في لحظات الحسم ، في اللحظات التي يتسامي فيها الإنسان وجداً وفكراً وإرادة ، والمادية عقى وغيره ولود مثل هذا التسامي ، لأن المادية لا تؤمن بأن الإنسان يمكن أن يكون له دور في هذا الوجود غير دور المنفعل والمتفاعل ، وأن التطور يحدث بصورة عرضية لا

قد يرى فيها ولا حكمة . وقد رد جورج بر فالد شو على هذه النظرة الى الحياة ردأ رائعاً حيناً قال :

« اي امل هنالك إذن في ان تسير الانسانية الى افضل ؟ إذا كان الداروينيون المجددين والميكانيكيون لا يعتقدون بأن هناك شيئاً من الامل لأن التطور لا يحدث إلا بصورة عرضية لا تدير فيها ولا حكمة ... بيد أن هذه العقيدة الشقيّة لا تضبط عزائم أولئك الذين يؤمنون بأن الدافع الذي ينجم عن التطور هو خلاق . وقد لاحظوا حقيقة شديدة البساطة وهي ان الارادة التي تصر على شيء تفعله في النهاية ، وهي تستطيع ، في لحظات معينة من التركيز الذي قبله لايابها بالحاجة إليه ، ان تخلق وتنظم كياناً جديداً ، وهذا فهو لا يعتبرون الجنس البشري لعبة لا إرادة لها . »

نحن لا نستطيع ان ننكر ان الشيوعية جاءت بثابة رد فعل عنيف للرأسمالية التي مارست في القرنين التاسع عشر والعشرين افعى المأسى الانسانية واحتط الرذائل ، من استغلال واستعمار واستعباد ، ولكن الشيوعية مع ايابها بضرورة هدم جميع التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي نشأت عن الرأسمالية ، إلا أنها عجزت كل العجز عن إيجاد حافز جديد للانسان ، حافز يبقى للأنسان طاقته الفاعلة في الكون ، ويعطيه معنى لوجوده ، وسبب عجز الشيوعية عن اعطاء مثل هذا الحافز يعود أولاً وأخيراً ، إلى أنها بدلاً من أن تنفي الحافز الذي وطده الرأسمالية في النفس الانسانية ، هذا الحافز الممثل بحب العيش ، جاءت لتأكيده وتجعل منه فلسفه وديناً ، ولا شك ان القارئ ليدرك عميق الادرك الفروق الجوهرية بين حب العيش وحب الحياة . فالحيوان يحب ان يعيش ، اما الانسان فيتوق الى ان يحيا .

ومن الطريف ان نرى اليوم في الاتحاد السوفيتي ان ابناء الجيل الجديد فيه ، جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية من ابنائه ، يتلقون في سلوكيهم الشخصي

ومثيله من ابناء الدول الرأسمالية ، واعني بهذا الجيل ، الجيل الذي يطلق عليهم اليوم في بريطانيا اسم Tedy Boys ، ويقوم الآن الكتاب والمفكرون السوفيات المخضرمون ، الذين عاشوا في عهد ستالين ويعيشون في عهد خروشوف ، بشن الحملات الشعواء عليهم ، ويتمثل هذا الجيل في الاتحاد السوفيatic الشاعر السوفيatic الشاب إفتشنكو ، ويحاول هذا الجيل ان يقلد في سلوكه ، او بالاحرى ان يسلك السلوك ذاته الذي يسلكه جيل « التدي بويز » في البلدان الرأسمالية الغربية ، وهذه الظاهرة هي ذات مغزى عريق ، وعميق جداً ، إذ انها تدل دلالة واضحة على بداية الالتقاء بين الرأسمالية الجديدة ، رأسالية القرن العشرين ، الرأسالية الخاضعة لضربية الدخل العالي ، وبين الشيوعية ، فالرأسالية الحديثة تتطور اليوم الى كايريدتها ووصفها جميعاً بـ « التروتسكوي السابق » ، الى اعتقاد نظام المديرين . كا تدل دلالة واضحة على ان الشيوعية في الاتحاد السوفيatic ، بعد ان جعلت او تكاد تجعل من الاتحاد السوفيatic ، دولة على مستوى الولايات المتحدة الاميركية ، اقتصاداً ودخل فرد ، او شكلت ان تستنزف طاقاتها الثورية ، واوشكت ان تلقي بـ « ابنيتها » الى الحيرة والقلق اللذين تعانيهما اليوم شبيبة الدول الرأسمالية الغربية . وقد اورد الكاتب الروسي امداد كرانشكو في كتابه المعروف « الحياة بدون ستالين » مقطعاً طريفاً يصف فيه مسلك هذا الجيل ويقول :

« إن هؤلاء يسمون لينغراد بـ بيتروغراد ، وستالينغراد بتزاريفستين ، وشارع غوري في موسكو « بشارع برودواي » ، ويحبون ان ينادوا رفيقهم « بيلو مستر » « والكونبيك » امسى على لسانهم « سنتا » و « الروبل » « دولاراً » ... »

ومن اطرف الطرائف ان تخرج اليوم نظرة « جديدة؟! » الى الحياة ، واعني بهذه النظرة - الوجودية ، وإذا كان هناك من قيمة للوجودية ، فان قيمتها تمثل في كونها ظاهرة باللغة الاممية ، ودلالة على ان المادية اخذت

تحاول جمع شتات ابناءها من رأساليين وشيوعيين لتصهرهم في الوجودية ، هذا المذهب الذي يمثل نقطة الالقاء الرأسالي الشيوعي في المادية المتوجهة الى هاوية الاخلاق والعدم ، ولاني هنا أود ان اكتفي بابراز بعض ما ورد على السنة بعض اقطاها ، وذلك لانني اعد في الوقت الحالي دراسة عن هذا الموضوع :

يقول سارتر :

« حكم على الناس باليأس ، لأنهم يكتشفون ان جميع النشاطات الانسانية متساوية مئاتلة ... وانها كلها مقدر عليها الاخفاق ، مبدئياً ، وهكذا سواء على الانسان ، أتعاطى الكثؤوس في عزلته أم قاد الشعوب . »

ويقول شتوف :

« إذا كنت حقاً تريد الخلاص ، فعليك ان تقتل العقل والشرع ، ذلك لأن الانسان لا يسعه ان يعيش معها . »

ويقول ألبير كامو :

« ليست هناك إلا قضية فلسفية واحدة تتحتم حقاً بصفة الجد ، وهذه القضية هي الانتحار . »

ويقول كامو في مكان آخر :

« تؤلف خمرة اللامعقول وخبز اللامبالاة عظمة الانسان ... اللامعقول اضاء في هذه النقطة ، ليس ثمة من غد ، هذا ما يؤلف ، بعد الآن ، سبيلاً لحرفيتي العميق » .

ويقول كامو ايضاً :

« إن الایمان يعني الحياة يفترض دائماً سلماً للقيم و اختياراً و اثناء تؤثرها ، أما الایمان باللامعقولية ، الذي ابشر به ، اذا كامو ، فيقول العكس » .

ويقول الوجودي المسيحي المعروف غبريل مارسيل :
« ... وواقع ان الحياة قد تبدو مجردة من المعنى ، بكل ما تعني الكلمة
« مجردة » ، هذا الواقع يؤلف جزءاً مكملاً من أجزاء كيانها . »
وهناك آلاف الاقوال « المأثورة » غيرها عن اقطاب الوجودية من كتاب
وفلاسفة .

وختاماً وددت ان اكتب هذا المدخل رغبة وحباً مني ، في حماولة لفت
نظر الشبيبة العربية ، في هذه المرحلة ، من مراحل انبعاثنا القومي والافساني ،
إلى الحقيقة الفائقة بأن قيمة العقيدة اثنا تمثل في انسجامها والأخلاق الانسانية ،
هذا الجوهر الذي يربطنا بالله والكون .

أحمد الشيباني

الرأسمالية

ما هي الرأسمالية — فلاسفة الرأسمالية — الرأسمالية والاستعمار

أ— مدخل تاريخي

تنحدر الرأسمالية من صلب البرجوازية ، ومع أن البرجوازية في مرحلتها الأخيرة هي الرأسمالية في مرحلتها الأولى ، غير أن هناك كبير فرق بين مفهومي الرأسمالية والبرجوازية ، فالبرجوازية تمثل طبقة اجتماعية يتركز نشاطها على قصدり السلع واستيرادها ، أما الرأسمالية فتمثل طبقة اجتماعية تملك مشروعات صناعية تحمل فيها الآلة محل اليد العاملة ويصبح المال لدحها عنصراً جوهرياً من عناصر الاقتصاد . إذن فإن البرجوازية في دور الشيخوخة هي الرأسمالية في دور الطفولة .

لذلك يحتم علي تسلسل البحث ان القى نظرة خاطفة على البرجوازية ، وان اسرد سرداً موجزاً تاريخاً تطورها .

ولدت البرجوازية في كنف نظام الاقطاع ، ونظام الاقطاع كما يعلم القاريء يستند في دستوره الى القواعد التالية :

- ١— انعدام الحكم المركزي .
- ب— التبعية الدافئة او القنانة (Serfdom) .
- ج— الخدمة الجانية الاجبارية في ارض « السيد » يوماً كل اسبوع .
- د— الخدمة الاجبارية الجانية في المواسم في ارض « السيد » .
- ه— تقديم المدابا في الاعياد والمناسبات الى « السيد » .

و - طعن الغلال في مطحنة «السيد» وعصر محاصيل الكروم في معصرته ..
ز - لا يجوز للفلاح «القان» ترك عمله في ارض «السيد» .
ح - «السيد» هو المرجع الاوحد للاقنان في جميع الحالات واحكامه غير قابلة للنقض .

(لقد تعمدت ان اسوق في حديثي عن البرجوازية القواعد الاساسية لدستور الاقطاع ونظامه وذلك رغبة مني في ابراز اسباب ثورة البرجوازية على الاقطاع مستقبلا) .

تشتق كلمة البرجوازية من الكلمة Burg اي «القلعة» وقد اطلقت على فئة التجار او الباعة المتجولين الذين كانوا يؤمون الاريات ليتبادلوا على المنسوجات والمعطور والتوايل بالمتوجات الريفية ومشتقاتها ، لذلك كان اول مطلب للبرجوازيين يتمثل في حصولهم من «السادة» الاقطاعيين على حق الانتقال وحرية التجوال بين الاقاليم ، هذا الحق الذي لم يكن مباحاً للفلاحين الاقنان وقد استجواب «السادة» الاقطاعيون لهذا المطلب لقاء مبالغ من المال قام البرجوازيون بدفعها اليهم .

اما في الشتاء وعندما تتمر الثلوج والاوحـال الطرق والمسالك فيغدو التجوال والانتقال عسيراً صعباً، فكان البرجوازيون يتمرـكون في القرى الواقعـة على مفترق الطرق او عند مصب الانهـار ، ومن ثم اخذـوا وبالطبع بـموافقة «الـسيد» صاحـبـ الـاقـطـاعـيـةـ، يـبنـونـ المناـزلـ فيـ تلكـ النقـاطـ ذاتـ الـاـهـمـيـةـ التـجـارـيـةـ، وهـكـذاـ تكونـتـ شيئاًـ فـشيـناًـ المـدنـ الـقـيـاسـيـةـ الـقـيـاسـيـةـ، كـاـنـهمـ طـلبـواـ منـ «ـالـسـيـادـ»ـ أـصـحـابـ الـاقـطـاعـيـاتـ السـيـاحـ لهمـ بـيـنـاءـ الـاـسـوارـ حولـ مـدـنـهـمـ، فـسـمحـ لهمـ بذلكـ لـقاءـ ماـ دـفـعـوهـ لهمـ مـاـ مـالـ اوـ هـداـيـاـ .ـ وـكـانـ هـؤـلـاءـ التـجـارـ هـمـ انـفـسـهـمـ يـقـومـونـ بـجـراـسـةـ المـدـنـ ،ـ وـهـذـاـ مـاـ يـخـالـفـ دـسـتـورـ الـاقـطـاعـ الـذـيـ يـحـصـرـ بـالـسـيـدـ مـسـؤـلـيـةـ حـمـاـيـةـ الـاقـنـانـ وـتـوـفـيرـ الطـمـائـنـيـةـ هـمـ .ـ وـبـذـلـكـ اـصـبـحـ هـذـهـ المـدـنـ شـبـهـ اـسـقـلـالـ إـدـارـيـ،ـ غـيـرـ انـ الـكـلـمـةـ الـعـلـيـاـ بـقـيـتـ لـلـسـيـادـ،ـ أـصـحـابـ الـاقـطـاعـاتـ

الذين كانوا يتلقون نسباً معينة من الارباح . ورغبة من البرجوازيين في الحفاظ على مصالحهم وتدعيم أمنهم وتوفير اسباب طمأنينتهم بدأوا في تكوين اتحادات عامة ، وكان يتعتمد على كل تاجر ان يقسم عين الولاء للجميع .

أخذت المدن تنمو شيئاً فشيئاً وتكونت طبقة اجتماعية جديدة ، وبرزت البرجوازية في المجتمع الاقطاعي ، المؤلف من طبقة النبلاء وطبقة رجال الدين والاقنان ، ورأت الكنيسة في هذه الطبقة الجديدة خطرأ داهماً على سلطانها ، وخشي رجال الدين ان يفقدوا سلطاتهم الواسعة على المدن الناشئة ، لذلك قاموا بشن الحملات العنيفة على البرجوازية ، فاستطاعوا ان يمنعوا الاحتكار وينعموا بالسمسرة ويحددوا الأسعار ويحدومن ارباح البرجوازية . وقام واعظون دينيون « كجالك دوفيزي » و « ايف دو شارتر » لمحاربة الربا ، غير ان البرجوازية لم تتأثر بهذه الحملات ، بل دعمت سلطاتها في المدن واخذت تديرها حسب رغباتها ، واصبحت هي التي تشرع لنفسها وهي التي تسن القوانين التي تلائمها . وهي التي اختار قضاتها وفجأة تبدلت المقاييس واختلت الموازين واصبحت الثروة هي التي تحدد قيمة الفرد الاجتماعية لا الملكية الواسعة للارض وغدا اثرياء البرجوازية اسياداً مطلقي الصالحيات يكذبون الاموال وينمون الثروات غير عابئين بصالح الشعب من نبلاء ورجال دين او اقنان ، وانقسم المجتمع في المدن الى طبقتين : طبقة الاثرياء الذين يملكون كل شيء و لهم السلطة السياسية من ادارية وتشريعية ، وطبقة المعدمين الذين لا يملكون شيئاً من مال ، او رأياً في توجيه السلطة ، ولقد وصف الحلف الفرنسي « بومانوار » في منتصف القرن القرن الثالث عشر الوضع الذي آلت اليه البرجوازية فقال: «إنك لترى ان الفقراء ومتوسطي الحال ، ليس لهم مركز واحد من مراكز الادارة في المدن بينما الاغنياء مسيطرون عليها تماماً ، ولئن كان بين رؤساء البلديات او الحلفين بعض رجال الطبقات الفقيرة ، فانهم بعد زمن صاثرون حتماً الى وضع الاغنياء ذاتهم وحينئذ لا يعودون من طبقة الشعب ».

وهكذا كان لا بد للنبلاة ورجال الدين والاقنان والمعدمين من أهل المدن

من ان يتكلوا ضد هذه الطبقة الاجتماعية النشطة والطالمة ، لذلك شهدت اعوام ١٣٢٠ ، ١٣٦٩ ، ١٣٧٢ ، انتفاضات وثورات لاهبة ضد البرجوازية في فرنسا وغيرها من البلاد الاوروبية ، غير ان البرجوازية الاوروبية لقيت في صراعها ضد هؤلاء ، حلفاء اقوياء هم الملوك . إذ كان الملوك آنذاك يطمعون في توسيع مالكم وضم الاقطاعات اليها وإخضاع الاسياد الاقطاعيين الى سلطانهم ، وبالفعل تمكن الملوك بمساعدة البرجوازية من توحيد الاقطاعات وحرمان الاسياد الاقطاعيين ورجال الدين من حق ممارسة القضاء بين الشعب ، وعندما تم للملوك هذا الظفر التفتوا الى البرجوازية فضموا ايضاً المدن الى مالكم واجتمعوا مجالس البلديات الى سلطانهم . غير ان هذا العمل لم يؤثر على نفوذ البرجوازية او سلطانها ، إذ ان احتياجات الملوك المتزايدة للمال ، وتتوفر المال لدى الطبقة البرجوازية دون غيرها من الطبقات الاجتماعية ، حافظ للبرجوازية على مكانتها المرموقة في المجتمع والدولة . ودليل على ذلك هذا القانون العجيب الغريب الذي اصدره الملك « جان لوبيون » عام ١٣٥٥ بفرض ضريبة تتناسب عكساً مع مع النزوة اذ نص هذا القانون على ان تفرض على العائدات التي تقل عن عشر ليارات ضريبة قدرها ١٠٪ . والعائدات ما بين ١٠ - ١٠٠٠ ليرة تؤخذ عليها ضريبة قدرها ٣٪ . واما العائدات التي هي ما فوق الالف ليرة فإذا كانت لغير الاسياد اصحاب الاقطاعات فهي معفاة من الضريبة ، وكذلك عائدات النبلاء التي تخطي الخمسة آلاف ليرة فهي معفاة من الضريبة ايضاً .

من هذا القانون يتضح ان السيطرة الفعلية كانت للبرجوازية .

لم تنس البرجوازية ما الحقته بها الكنيسة من اضرار وادى، لذلك ركزت نشاطاتها على محاربة الكنيسة اذ انها ادركت بغيرتها انه لا سبيل الى القضاء على الاقطاع ونظامه الا بالقضاء على الاساس الروحي الذي يستند اليه هذا النظام فشجعت « مارتن لوثر » على الثورة ضد الكنيسة ، وأيدت سرآ جون هن ، وكلفن الذي وقف ليعلن على رؤوس الاشهاد ولاءه للبرجوازية فيقول : « لماذا لا نسمح لصاحب المال ان يستغل ماله ، بينما نسمح لصاحب الارض ان

يؤجر أرضه لقاء مبلغ من المال يحصل عليه دون أن يتعب نفسه في تحصيله ؟ وأخيراً بدأ المال يلعب دوره الجوهرى في الاقتصاد، فتأسست المصارف وتوسعت أعمالها وأصبحت النشاطات المصرفية عنصراً ضرورياً للاقتصاد، وقد ساعد اكتشاف أميركا على تدعيم مركز المؤسسات المصرفية ومضاعفة رؤوس أموالها. وأصبح المال شرطاً أساسياً لكل قوة. فأخذ الأثرياء يقومون بإنشاء المشروعات الصناعية، وبرز إلى المجتمع العمل المأجور وولدت الرأسمالية على زعiq الآلة وكدح العمال، وقامت الثورة الفرنسية تنص في « شرعة حقوق الإنسان » على أن « حق التملك حق مقدس » وجاء ثابوليون يفسر هذه المادة قائلاً :

« ما هو حق التملك ؟ انه ليس حق استعمال ما نملك فحسب ، ولكن ان نتصرف به كما نشاء أيضاً ، بل ان نغالي في التصرف ، يجب ان لا تغرب عن الذهن فوائد الملكية وأن على التشريع أن يكون دائماً بجانب الملكية .. »

ب — فلاسفة الرأسمالية

يرى « فرنسو كنياي » (١٦٩٤ - ١٧٧٨) وهو أحد فلاسفة الطبيعين ، انه يجب ان يكون الأفراد أحراراً في العمل وان يسيراوا وفق مصالحهم الخاصة وان يسمح لهم بزراولة المهن التي يختارونها ، وان ترك لهم حرية الانتقال وحرية اجتناء الثروات وحرية التصرف في ممتلكاتهم كما يرغبون ، ولا يجوز ابداً للدولة ان تتدخل في نشاطاتهم ، كما انه لا يجوز للدولة ان تقد يد العون لهم . وملخص فلسفة « فرنسو كنياي » هو « دعه يعمل ، دعه يمر ، فالعالم يسير من تلقاء ذاته » او بقول آخر « لا تتدخل فالعالم كفيل ان يعنى بنفسه » .

اما آدم سميث (١٧٢٣ - ١٧٩٠) فإنه يعتبر نبي الرأسمالية والعالم الاقتصادي الاول الذي شرح الرأسمالية ووضع دستورها واشترع قوانينها ،

وكتاب « بحث في طبيعة واسباب ثروة الامم » المعروف باسم « ثروة الامم » يعتبر انجيل الرأسمالية والرأسماليين . ومن الطريف ان آدم سميث كان صديقاً حانياً « جييس واط » مخترع الآلة البخارية .

يعارض آدم سميث المذهب التجاري القائل بان ثروة الامم تنبع من زيادة الصادرات على الواردات . ويقول سميث ان هذا المذهب خاطئ ، وذلك لأن النبع الوحيد للثروة هو العمل والموارد الطبيعية .

ويقول سميث ان ثروة الامم تتزايد نتيجة للمهارة والكافية في العمل ، كما ان رفاه الامة اما يقاس بقدر الدخل القومي الحقيقي ، وهذا القانون ايضاً ينطبق على الفرد . ويقول آدم سميث ان الوسيلة الاساسية لزيادة الانتاج تتحصر في تقسيم العمل واستخدام الالات الميكانيكية ، فالشخص الناشيء عن تقسيم العمل يرفع من طاقة انتاج العامل . ويرى سميث ان التحسين الذي طرأ على وسائل النقل قد وسع الاسواق وعمقها ، وهذا ما سيخطط بالصناعة والتجارة قدماً . ويقول سميث ان القيمة الحقيقية للسلعة تقدر بقدر العمل المبذول لانتاجها ولذلك فان الانسان لا يقدم على انتاج سلعة ما الا اذا وجد ان فائدتها تستحق الجهد الذي يبذل لانتاجها . أما في حالة ما اذا وجد ان بامكانه ان يحصل على تلك السلعة من طرف آخر يجهد اقل من الجهد الذي يضطر هو لبذلها فعنده يجري عملية مبادلة مع الطرف الآخر . وعن هذه العملية ينشأ الكسب المتبادل بينه وبين الطرف الآخر . ويقول سميث ان الوسيلة لتحقيق الكسب المتبادل هي التخصص الناشيء عن تقسيم العمل والتجارة .

قانون العرض والطلب :

يقول سميث انه في ظل في نظام اقتصادي يستخدم النقود تكون للسلعة قيمتان الاولى حقيقة وهي العمل المبذول لانتاجها ، والثانية اسمية وهي السعر النقدي . ويقول ان القيمتين لا تتفقان وتتساولان اكثر الاحيان فاذا ما ازداد الطلب على

على سلعة ما ارتفعت قيمتها الاسمية وبذلك يعني المنتج المزيد من المرابح، وهذه الزيادة من الارباح تخلق كما يرى سميث المنافسة في الانتاج والتجارة إذ تقوم مشروعات أخرى بانتاج السلعة التي ازدادت عليها الطلب ، وهذا ما سيؤدي الى انخفاض سعر السلعة ، وعندما يشبع السوق تنخفض القيمة الاسمية للسلعة المذكورة الى ما دون القيمة الاسمية ، ومن ثم يقول سميث بأن القيمة الاسمية تبقى في معظم الظروف متذبذبة حول القيمة الحقيقية اما في حالة توازن العرض والطلب فعندئذ تتعادل القيمتان الحقيقية والاسمية .

ومن هذا يستنتج سميث قائلاً بان السوق الحرة ذات فوائد جمة للاجتماع ، إذ ان التنافس سيمكن كل انسان من الحصول على ما يحتاج اليه بأقل ثمن ممكن ، كما وان السوق الحرة ترغم اصحاب المشروعات على استخدام الموارد العامة في خدمة المستهلكين .

ومع أن آدم سميث يعترف اعترافاً ملتوياً بان هدف الرأسالي هو اقتناص الارباح لا خدمة المجتمع ، غير انه يحاول من جهة اخرى ان يقول بأن الرأسالي عندما يدير مشروعه صناعياً، فان يبدأ خفيه تقوده الى تحقيق غاية هي ليست من اهدافه ، فهو أي الرأسالي عندما يعمل على ابناء مصلحة فــانه ينمی على حد اعتقاد سميث مصالح المجتمع بصورة فعالة اكثر مما يعتزم وبهذا يقرر آدم سميث القانون الآتي :

« لو ازيلت كافة النظم سواء ما تعلق منها بالايشار او الضبط فان نظام الحرية الطبيعية الواضح والبسيط يثبت وجوده بمحض إرادته ». ويؤكد آدم سميث ان ملاحقة الفرد لغاياته الخاصة تشكل الدعامة الاسمية للمنفعة العامة .

ويرى سميث ان الزيادة في الثروة القومية تؤدي الى ارتفاع الاجور، وان الصناعة ترفع من مستوى اجور العمال ، لذلك فان ارتفاع الاجور مرهون بنمو الاقتصاد ، ويقول آدم سميث ان هناك تفاهماً غريزياً بين ارباب الاعمال على على معدل للأجور إذ يصرح قائلاً :

«إن بين السادة دائمًا في كل مكان تفاصيل شبه خفي، ولكنه دائم ومتجانس، من حيث عدم رفع أجر العمل فوق المعدل الفعلي».

ويرى سميث أن الارباح تتصل إلى الانخفاض كلما زاد الشعب في تجميع رأس المال، ويرد سميث سبب الانخفاض هذا إلى المنافسة في الصناعة.

ويقول سميث بأن المنافسة هي شرط اساسي من مفروض تحقيق الحرية الطبيعية، لهذا فإن آدم سميث يعتبر عدوًّا للنظام الاحتكاري إذ إن الاحتكار على حد تعبير سميث «هو عدو الارادة الحسنة التي لا يمكن توافرها الا نتيجة المنافسة الحرة العامة التي ترغم كل أمرٍ على الالتجاء إليها كوسيلة للدفاع عن النفس».

ويأتي عقب آدم سميث روبرت مالتز (1766 - 1834) ونظريته الشائمية مشهورة وهي تقول أن الناس يتکاثرون وفقاً لسلسلة هندسية بينما تتزايد موارد الطبيعة وفق عملية جمع لذلك فلا طريق لتخفيض الضغط عن موارد الطبيعة إلا عن طريق الحروب والأوبئة والمجاعات التي تفتث بالبشر. وروبرت مالتز هو الذي قرر القانون المعروف باسم «القانون الحديدي للأجور» وهذا القانون يقول بأن الأجور لا يمكن أن ترفع فوق مستوى الكفاف لأن آية زيادة في الرخاء تؤدي إلى زيادة مباشرة وعماطلة في عدد العمال، وحينما تهبط الأجور دون مستوى الكفاف فإن الفائض من العمال سيقتني عليهم الموت.

وينادي روبرت مالتز بضرورة الزواج في سن متأخرة إذ يرى فيه خيراً عمياً للأخلاق الإنسانية والنظم وأنه يتوجب على كل أمرٍ إلا يزيد عدد أولاده عن طاقته على إعاتتهم.

وأخيراً ينصح روبرت مالتز بعدم تقديم آية مساعدة أو عون إلى العائلات التي تعجز عن تدبير وسائل معيشتها، ومن الطريق أن مقدم هذه النصيحة من رجال الدين المسيحي.

ومن ثم يجيء «جان بابتيست ساي» (1762 - 1832) وهو أحد اتباع

آدم سبيث وقد قام بتهذيب نظريات آدم سبيث ورتبها في نظام ومنطق ، وهو الذي وضع القانون المعروف باسم «قانون ساي» وهذا القانون يقول بأنه ما دام انتاج اية سلعة يخلق طلباً مماثلاً على سلعة اخرى إذن فلا بد ان يكون العرض الكلي مساوياً للطلب الكلي ، ومن ثم يقرر «ساي» قائلاً : «ونتيجة لهذا القانون لن يكون هناك وجود لما يسمى «بالافراط العام في الانتاج» .

ج — ماهي الرأسمالية

أرى ان الرأسمالية هي الخطط الكامل الذي ابتدعه الساببة في العقل البشري لتنظيم وإدارة وتوجيه الفريزة البشرية في احاطة دورها المهمجية ، لذلك اعتبر الرأسمالية هي الحيوانية التي ينظمها العقل ، إذ أنها تتشكل طمعاً واعياً ونهماً يقطعاً يعرف اهدافه ويعرف الوسائل التي يسلكها اليها ، وشرامة تتغذى بالواقع وتهتمي بنور العقل ، واثرة ضيقة خانقة ، إنها في اختصار أرقى الدرجات التي وصل إليها «العقل الحيواني» في الإنسان .

ففي ظل النظام الرأسمالي تنعدم حق الفضائل القليلة التي عرفها مجتمع القطاع ، ففضائل النخوة والشهامة والفروسيّة . لذلك يبلغ في النظام الرأسمالي الصراع بين «العقل الحيواني» ، «والعقل الانساني» في الإنسان ذروته ، ويتحدى المجتمع من الفساد مظهرها وجوهرها فلا حياة إلا للأقوى ولا وجود للضعيف ، أما ام الفضائل ومنتجها في ظل النظام الرأسمالي فهو الربح ، الربح بأية وسيلة وسبب ، والرأسمالية كما سرني فيما يأتي من بحث لا تتغذى من دماء الشعب فحسب ، بل إنما يلتزم الرأسماليون بعضهم بعضاً أيضاً .

وللرأسمالية قوانين رهيبة تسير بوجها وتطبقها على كل نشاطاتها وهذه

القوانين الرهيبة هي :

- ١ - قانون البحث عن الربح .
- ٢ - قانون المزاحمة والمنافسة .
- ٣ - قانون التمركز والقدرة على الانتاج وحصره .
- ٤ - قانون السعر الخفيف .

١ - قانون البحث عن الربح :

ان هذا القانون يشكل التعارض الجوهرى بين النظام الاشتراكى والنظام الرأسمالى . فالنظام الاشتراكى كاًقلنا في فصل سابق يحصر غايات الاقتصاد في سد احتياجات البشر ، بينما ات النظم الرأسمالى يوجه الاقتصاد نحو تحقيق الارباح وإختبائها وتكتسيها في صناديق أصحاب المشروعات .

وتبدأ الرأسمالية اول ما تبدأ في تطبيق هذا القانون على المجتمع الذي تنشأ فيه وتنشط ، ويكون اول ضحايا هذا القانون العمال والمستهلكون إذ انها تسعى ابداً إلى زيادة ارباحها على حساب الاجور ، ونحن إذا ما عدنا الى المراحل الاولى من تطور الرأسمالية شاهدنا مدى الاستغلال البشع الذي كانت الرأسمالية تمارسه ضد العمال ، إذ كان هدفها الاسامي يتتركز اولاً واخيراً على ابتزاز اكبر قدر من الساعات الانتاجية من العمال لقاء اقل قدر ممكن للأجور . وهي لتحقيق هذا الهدف لا ترحم طفلاً او امرأة اوشيخاً . ويدوره كارل ماركس في كتابه المشهور « رأس المال » وفي الفصل العاشر منه والمعنون « بنهاي العمل » رأى احد الرأسماليين البريطانيين المدعو ا. ف. ساندرسون في قانون منع الاولاد الذين دون الثالثة عشرة من العمل ليلاً ، فيقول هذا الرأسمالى لا فض فوه ما يلي : « ان منع الاولاد الذين هم دون الثالثة عشرة من العمل ليلاً سوف تتججم عنه صعوبات كبرى ، وامها زيادة التكاليف التي يسببها اخلال

الرجال محل الاولاد، والى اي حد سوف ترتفع هذه التكاليف؟ هذا سؤال لا استطيع الاجابة عليه ، ولكن من المحتمل انها لن ترتفع الى درجة يستطيع معها صاحب المعمل ان يرفع ثمن الفولاذ، لذلك فان الخسارة سوف يتتحملها وحده نظراً لأن العمال الرجال سوف يرفضون حتماً تحمل الخسارة ».

ويدرج كارل ماركس في احد هوامش الفقرة الخامسة من الفصل العاشر من كتابه «رأسم المال» مقطعاً من التقرير الرابع المرفوع الى مجلس العموم البريطاني عن وضع الاولاد العمال في مصانع الزجاج في بريطانيا فيقول هذا المقطع : « ان اكثر الاولاد في معامل الزجاج حيث تصنع القناني الصوانى والزجاج (Flint Glass) مرغمون على السير مسافة ١٥ - ٢٠ ميلاً تستغرق منهم ست ساعات لانجاز عملهم ، وكثيراً ما يستمر هذا العمل من ١٤ الى ١٥ ساعة وليس هناك ثمة لحظة واحدة للعب واستنشاق الهواء النقي ، لأن لم يكن ذلك على حساب النوم الذي لا غنى عنه لاولاد يقومون باعمال قاسية كهذه في جو محرق كذلك الجو ... كما وان لحظات النوم القصيرة متقطعة لأنه يتوجب على الاولاد ان يستيقظوا « لقضاء حاجاتهم » في الليل او بسبب الضجة الخارجية التي تقلق نومهم في النهار » .

ويستطرد كارل ماركس فيقول بأن تقرير مقتضى العمل السيد « وايت » قد اورد بعض الحالات حيث اشتغل ولد صغير ستة وثلاثين ساعة متواصلة ، وآخرى حيث يعمل بعض الاولاد حتى الساعة الثانية صباحاً ، ويستيقظون في الساعة الخامسة صباحاً اي لا ينامون اكثر من ثلاثة ساعات ، ويدرج كارل ماركس في احد هوامش فقرة من تقرير مقتضى العمل « لورد » وذلك في الفصل العاشر من كتابه «رأسم المال» وفي الفقرة الرابعة منه والمعروفة « عمل النهار وعمل الليل - نظام البديل » تتحدث هذه الفقرة عن نظام العمل فتقول :

« يعمل فريق وجبة النهار ، خمسة ايام كل اسبوع ، كل منها ١٢ ساعة ويوماً مقداره ١٨ ساعة ، اما فريق الليل فيعمل خمس ليال كل اسبوع ويوماً واحداً

في الاسبوع مقداره ست ساعات . وفي احوال اخرى تستغل كل فئة اربعاء وعشرين ساعة بالتناوب ، فئة تعمل ست ساعات يوم الاثنين و ١٨ ساعة يوم السبت لاستكمال الـ ٢٤ ساعة .

ويستطرد السيد لورڈ في تقريره فيقول :

«وفي حالة تغيب العمال المناوبين فشة اطفال دون الثالثة عشرة ومرأهون دون الثامنة عشرة ، ونساء يستخدمون في هذا النظام العملي الليلي . وكثيراً ما يتوجب عليهم الشغل في نظام الـ ١٢ ساعة بسبب غياب العمال المناوبين مدة الفئة المضاعفة (١٨ ساعة) ، وقد ثبتت من اقوال الشهود ان صبياناً صغاراً وفتيات شابات ، غالباً ما يرهقون بالعمل الاضافي الذي لا يستمر ٢٤ ساعة فحسب بل يتعداها الى ست وعشرين ساعة ايضاً » .

ويستطرد السيد لورڈ في تقريره فيورد التالي :

«وفي معامل الدهان نجد فتيات في الثانية عشرة من العمر يعملن ١٤ ساعة يومياً طيلة شهر كامل دون اي عطلة منتظمة باستثناء نصفي ساعة او ثلاثة انصاف الساعة ليتناولن وجبات طعامهن . وفي بعض المعامل التي تخلت عن عمل الليل يستمر العمل بصورة مفزعية ما وراء الوقت القانوني ، وخاصة ان العمل الذي يعملونه يتتألف من اقدر العمليات واكثرها رتابة وحرارة » .

ويورد كارل ماركس فقرة من تقرير مفتش العمل « ليونارد هورنر » في هامش بهذه الفقرة السادسة من الفصل العاشر من كتابه « رأس المال » فيقول :

« مؤكداً انه المؤسف جداً ، ان يتوجب على طبقة معينة من الناس ان تكدرح كل يوم إثنى عشرة ساعة فإذا اضفنا الى هذا الوجبات والذهاب الى المعلم والآيات منه ، كان وقت العمل هو ١٤ ساعة في اليوم من اصل ٢٤ ... واداً وضعنا مسألة الصحة جانباً وارجو ان لا يكون ثمة من ينفي ان من وجہة النظر الأخلاقية ، يؤلف استغراق كهذا كامل وقت الطبقات العاملة ، دون انقطاع ، منذ سن الثالثة عشرة ، وفي فروع الصناعة ، ولذلك ولمصلحة الأخلاق

العامة ، وابتعاده تربية شعب بارع مكين ، يجب ان تجري المطالبة في جميع فروع الصناعة ، بأن يخصص في كل نهار من نهارات العمل وقت للوجبات والراحة .

ويورد ايضاً كارل ماركس في الفقرة ذاتها وفي الفصل ذاته وعلى احد هوامشها نص العريضة التي قدمها عمال المغازل والمناج عام ١٨٥٩ . يقول العمال في عريضتهم هذه ما يلي :

« لكي نقول الحقيقة برمتها » ، نقول ان حياتنا عزيزة علينا ، وطالما بقينا مقيدين الى المعمل تقريباً يومين (٢٠ ساعة) زيادة في الاسبوع فسوف نحس باننا عبيد اذلاء في البلاد ، وسوف نلوم انفسنا لاننا نخلد نظاماً هو سبب الاهلاك المعنوي والجسدي لنا ولجنسنا ... اذن فنحن نخبركم بكل احترام ، اننا ابتداء من العام الجديد لن نشتغل دقيقة واحدة زيادة عن الستين ساعة في الاسبوع ، وذلك من الساعة السادسة صباحاً حتى السادسة مساء مع حسم الاوقات القانونية للراحة وهي ساعة ونصف الساعة .

ويورد ماركس في الفصل ذاته مادة من القانون الصادر في ولاية نيوجرسى الاميركية وتنتص هذه المادة على ما يلي :

« ان اي قاصر بلغ الثانية عشرة ولا يبلغ الخامسة عشرة ، يجب ان لا يستخدم في مؤسسة « مانيفاكتورية » اكثر من ١١ ساعة يومياً ، ولا يجوز استخدامه قبل الخامسة صباحاً ولا بعد السابعة والنصف مساء » .

هذه حوادث اقتطفتها من هوامش كتاب «رأس المال» ماركس وهي كما يلاحظ القارئ ، تقارير رسمية مرفوعة من مفتشي العمل الى الحكومة البريطانية . ولا أظن ان هذه التقارير بحاجة الى تعليق او شرح .

اما الأجر فالاولاد العاملين لم يكونوا يتلقون اكثر من اربعة شلنات في الاسبوع (لاحظ ان الجنيه عشرون شلن) ، وعندما صدر في انكلترا قانون الثامن من حزيران ١٨٤٧ الذي يقضي بتحديد ساعات العمل اليومي بحادي

عشرة ساعة اقدم الرساليون البريطانيون على تخفيض اجور العمال بنسب قفراوح بين ٩ و ٢٥ بالمئة، وكان المستوى الاعلى للأجر آنذاك يبلغ عشرة ثلثات في الاسبوع .

ووفق هذا القانون ، قانون البحث عن الربح ، يصبح العامل سلعة خاصة لقانون العرض والطلب ، فليس للأجور حد أدنى او حد أعلى ، وإنما تقرر مستواها حاجة السوق الصناعية اولاً، ومقدار عدد العمال ثانياً . فإذا كانت حاجة السوق كبيرة وعدد العمال لا يفي بها ارتفعت الاجور، ويتابع ارتفاعها بالنسبة لـ حاجة السوق ، اما في حالة كون عدد العمال يزيد عن حاجة السوق فعندئذ ينخفض الاجر ويتردج في الخفاضه يوماً بعد يوم واسبوعاً بعد اسبوع ، واخيراً في حالة توازن عدد العمال وحاجة السوق فان الاجر يحافظ على مستواه .

ولا يوجد في ظل النظام الرأسمالي كائن يدعى «الانسان» ، وإنما هناك يد عاملة وإيد عاملة . فالنظام الرأسالي لا يرى في الانسان سوى العضو المنتج منه ، الذي يقدم اليه الارباح والرابع ، لذلك ينحدر النظام الرأسالي بالانسان الى مستوى الآلة ، غير ان الآلة تلقي عناء ورعاية من لدن الرأسماليين اكثر بكثير من الانسان، فتلت آلة في مصنع ما يعرض الرأسماليين الى خسارة محققة ويقلص من ارباحهم غير ان موت انسان عامل لن يلحق بهم اية خسارة ، فهو سبب ايجاد يد عاملة اخرى (عامل) يحل محله ، هذه هي نظرة النظام الرأسالي في العامل الانسان .

ويدفع قانون البحث عن الربح بالرأسماليين إلى التفتیش عن المزاح في كل قطر وبلد من اقطار العالم . ففي مطلع القرن السادس عشر عندما كان «المذهب التجاري» يسود المجتمع الاوروبي بدأت طلائع الاستعمار تغزو القارات الآسيوية والافريقية والاميركية ، وبدأت آنذاك نواة الاستعمار في هذه القارات تنمو وتترعرع ، غير أن «المذهب التجاري» هذا المذهب الذي كان يوجه

فشاطات البرجوازية التجارية لم يمكن هذه الطلائع من ارساء قواعد ثابتة للاستعمار والمستعمرات ، وذلك لأن أهدافه كانت محصورة في تجارة الصادرات والواردات . ولكن عندما بدأ النظام الرأسمالي يبرز الى الوجود فاكتشفت الآلة البخارية واستنست المنيفاكتور ، وانشئت الصناعات ، ونشأت طبقة جديدة في المجتمع هي طبقة الرأساليين مالكي وسائل الانتاج ، وجد هؤلاء ان صناعاتهم كي تقدر ارباحاً مجزية هي بيسس الحاجة الى الاسواق والمواد الاولية ، فاخذت طلائع الاستعمار في الدول الصناعية ، وخاصة في بريطانيا التي كانت تعتبر آنذاك الدولة الصناعية الاولى في العالم ، تقيم علاقتها بالبلدان المكتشفة في القارة الاميركية وبالبلدان المستعمرة في القارتين الاسيوية والافريقية على أسس جديدة قدعمها القوات المسلحة من جيوش بحرية وبحرية ، وكان يتوجب آنذاك على الرأسالية ان تخوض معارك ضارية ضد البرجوازية فنشبت الحروب بين اسبانيا وبريطانيا والبرتغال ، وساه عهد من القرصنة البحرية ، واخيراً هزمت الرأسالية البرجوازية فانهارت الامبراطورية الاسبانية وفقدت اسبانيا سيطرتها على مستعمراتها في اميركا وآسيا ، كما وان البرتغال لاقت المصير نفسه ، فاصبحت بريطانيا الدولة الاوروبية الاولى ذات المستعمرات ، والامبراطورية التي لا تغيب الشمس عن ممتلكاتها . وعقب ان ازالت الرأسالية البريطانية تلك الهزيمة الشديدة بالبرجوازية الاسبانية والبرتغالية بدأ صراع جديد بين الرأسالية البريطانية والراسالية الناشئة في فرنسا وبدأت حرب باردة عنيفة بين الدولتين في عهد لويس السادس عشر ، وكلنا يذكر ان لويس السادس عشر قد أمد جورج واشنطن حرر الولايات المتحدة الاميركية في ثورته ضد بريطانيا بالمساعدات المالية وبالسلاح .

وعقب إعدام لويس السادس عشر تحولت الحرب الباردة بين الرأسالية البريطانية والراسالية الفرنسية الناشئة الى حرب ساخنة سالت فيها الدماء انهاراً ، ولم تنته هذه الحرب الا في هزيمة نابليون في معركة « واترلو » . ومن الاشياء التي تلفت النظر وتستدعى الانتباه ان الرأسالية البريطانية استعانت بالبرجوازية التي سبق لها أن هزمتها في حربها ضد الرأسالية الفرنسية الناشئة . ولقد شاهد

القرن الثامن عشر والتاسع عشر انطلاقات استعمارية اوروبية جبارة فاحتلت هولندا الجزر الكبوري المعروفة اليوم باسم اندونيسيا، واحتلت بلجيكا الكونغو البلجيكي الغني باشجار المطاط .

وكلنا يذكر المأساة الانسانية التي اقترفها الاستعمار في المستعمرات. فالكونغو البلجيكي مثلاً كان عدد سكانه في بدء الاستعمار البلجيكي يبلغ خمسة وعشرين مليوناً، وقد تدنى هذا العدد خلال ثلاثين سنة من الاستعمار البلجيكي إلى تسعة ملايين نسمة .

وفيما يلي جدولان يدلان بوضوح على التوسيع الاستعماري خلال القرنين التاسع عشر والعشرين .

المانيا		فرنسا		انكلترا		السنة
عدد السكان بالملايين	المساحة بملايين الاميال	عدد السكان بالملايين	المساحة بملايين الاميال	عدد السكان بالملايين	المساحة بملايين الاميال	
-	-	٠,٥	٠,٠٢	١٣٦,٤	?	١٨٣٠ - ١٨١٠
-	-	٣,٤	٠,٢	١٤٥,١	٢,٥	١٨٦٠
-	-	٧,٥	٠,٧	٢٦٧,٩	٧,٧	١٨٨٠
١٤,٧	١٩٠	٥٦,٤	٣,٧	٣٠٩,٠	٩,٣	١٨٩٩

اما الجدول الثاني فيرينا التطور الذي طرأ على الاستعمار بين عامي ١٨٧٢ و ١٩١٤ والدول الجديدة التي بدأت تمارس سياسة الاستعمار.

وهذه هي صورته :

المستعمرات				
١٩١٤		١٨٧٢		
نسمة بالملايين	كيلومتر مربع بالملايين	نسمة بالملايين	كيلومتر مربع بالملايين	
٣٩٣,٥	٢٣,٥	٢٥١,٩	٢٢,٥	انكلترا
٣٣,٢	١٧,٤	١٥,٩	١٧	روسيا
٥٥,٥	١٠,٦	٦	٠,٩	فرنسا
١٢,٣	٢,٩	—	—	المانيا
٩,٢	٠,٣	—	—	الولايات المتحدة
١٩,٢	٠,٣	—	—	اليابان
٤٥,٣	٩,٩			بلجيكا وهولندا وغيرها
٣٦١,٢	١٤,٥			اشباء مستعمرات الصين ، ايران ، تركيا

والآن لنتنظر كيف يعامل المستعمرون سكان المستعمرات ، وسأصر
مجالبي هنا على أفريقيا ، إذ اني لا أملك اية مصادر إحصائية عن المستعمرات
الأخرى خارج هذه القارة ، أضف الى ذلك ان هذه الاحصاءات تعبّر عن
وضع العمال الأفارقة في آخر النصف الاول من القرن العشرين ، وهذا التاريخ
له مغزاه بسبب ان الرأسمالية التي تضخمت على حساب المستعمرات قد رفعت
من مستوى الاجور بالنسبة إلى مراحلها الأولى .

يتقاضى العامل الأوروبي في التحاد جنوب أفريقيا من شركات التنقيب
عن الذهب حداً أدنى من الأجر يبلغ عشرين ثلثاً في اليوم ، بينما يبلغ
متوسط أجر العامل الأفريقي في الشركة ذاتها ثلثين وثمانية بنسات . وتفرض
غرامة على كل صاحب منجم ينبع الأفارقة أجوراً تزيد على الاجور المحددة
وذلك بغية إغراقهم على العمل في منجمه .

ثبت من البحث الذي أجراه مكتب الخدمة الاجتماعية لغير الأوروبيين
وشؤون الوطنيين أن متوسط ديون العائلة الأفريقية في ضواحي جوهانسبرغ
بلغت ٢٠ جنيهاً و ١٧ شلناً و ٦ بنسات لكل عائلة .

ظهر من الاحصاءات ان الفقر المدقع هو السبب الرئيسي لأمراض سوء
التغذية بين الأفارقة في التحاد جنوب أفريقيا . وقد دلت إحصاءات سنة
١٩٣٩ ان نسبة الوفيات بلغت ٢٩,٢٩ بالالف ، بينما بلغت نسبة الوفيات بين
الاطفال ٢٩٦,١١ بالالف ، كل ذلك حدث وشركات التنقيب عن
الذهب قد حققت ارباحاً صافية في تلك السنة تجاوزت الخمسين مليوناً من
الملايين الاسترلينية .

لم يترك من الاراضي التابعة لقبائل بتسوانا في مقاطعة « بتسوانا لاند »
والبالغة مساحتها ٢٧٥ ألفاً من الكيلومترات المربعة سوى مئة ألف كيلومتر
مربع ، أما المتبقى فقد استولى عليه البيض من الانكليز .

يجب على كل أفريقي يعيش في منطقة روديسيما الجنوبية أن يدفع

ضرائب تبلغ نحو عشرين شلنًا سنويًا ، يضاف إليها عشرة شلنات عن كل زوجة وخمسة شلنات عن كل كلب يملكونه ، وإذا لم يسدد الفريبة في مدى شهر من تاريخ استحقاقها عوقب بفراحة عشرة جنيهات أو بالحبس مدة ثلاثة أشهر.

يتوجب على كل الأفاريقين الذين ولدوا خارج روسيَا الجنوبية ويريدون دخولها أن يتقدموا بطلب للتصريح لهم بدخولها من إدارة الشؤون الوطنية ، فإذا حصل أحدهم على إذن بالدخول فله الحق في الاقامة مدة لا تزيد عن ثلاثين يوماً للبحث عن عمل . وإذا لم يحصل على عمل حتى انتهاء المدة قبض عليه بجريمة التشرد ، والقي به في السجن ، ومن ثم نفي من البلاد .

لا يحق للأفاريقين في روسيَا والساكنين في المدن الخروج من منازلهم بين الساعة التاسعة والخامسة صباحاً .

صدق البرلمان البريطاني بأكثريَّة ساحقة قانوناً يُعرف باسم «قانون تسجيل اللوائح» ويسمح هذا القانون للنساء بإنشاء دور البغاء وتقديم الخليلات لعمال المناجم ، ويحق لكل رجل أن يختار امرأة لتعيش معه ، وليس عليه أية مسؤولية مادية أو أدبية نحوها أو نحو أطفاله منها ، إذا أُنجب أطفالاً .

يحصل العمال الأفاريقيون في زراعة التبغ على أجر قدره ١٢ شلنًا وستة بنسات في الشهر .

يملك في روسيَا عشرون ألفاً من الأوروبيين مساحة من الأرض الزراعية تبلغ ٢,٥ مليون فدان انكليزي .

يتناقض العمال الأوروبيون في مناجم النحاس مرتبًا شهرياً يتراوح بين ٤٠ و ٧٠ جنيهًا شهرياً ، بينما يبلغ مرتب العامل الأفريقي جنيهين ونصف الجنيه تقريباً .

يتوجب على كل أفريقي في تجنيسها يتجاوز الثامنة عشرة من عمره أن

يدفع سنوياً ضريبة قدرها جنيهاً واحداً وخمسة عشر شلناً، ويبلغ متوسط الدخل الشهري لثل هدا الأفريقي ما يقارب ثلاثة أربع جنيه . هذا غيض من فيض ، ولو أردت ان أعدد جرائم الاستعمار ومخازي المستعمرين في المستعمرات لاستغرقني هذا العمل شهوراً وسنين .

٣ - قانون المزاحمة والمنافسة :

قلت في مطلع بحثي ان الرأسماليين لا يعيشون على دماء الطبقة العاملة ويقتذون بلحوم سكان المستعمرات فحسب ، بل انهم يتهمون بعضهم بعضاً ايضاً . فكل مشروع صناعي يجد في مثيله من المشروعات الصناعية منافساً له ومزاحماً ، لذلك يسعى بكل ما اقوى من جهد لتصفية هذا المشروع والاستئثار بالرأسمان والأسواق ، وذلك كله حباً في اجتناب الارباح . وقد لاحظ « لويس بلان » الاشتراكي الفرنسي خطأً آدم سميث في تقريره بأن المنافسة والمزاحمة تؤديان إلى انخفاض في مستوى الاسعار ، فلقد كتب « لويس بلان » عام ١٨٤٠ ينتقد هذه النظرية ويقول :

« ليس تدني الاسعار ، في عهد حرية المزاحمة ، إلا حسنة مؤقتة وهي خادعة ، فالمنطق الرأسمالي يحافظ على هذه الحسنة ويلازمها ما بقي النصارع والمنافسة ، وما ان يتغلب أغني الرأسماليين على أخصامه ويخرجهم من ساح المعركة ، حتى تأخذ الاسعار في الارتفاع . فالملاحة تؤدي إلى احتكار ، وتدني الاسعار - للسبب نفسه - يؤدي إلى ارتفاعها ، وهكذا فان السلاح الفتاك الذي كان يحدد به بعض المنتجين بعضهم الآخر يصبح اداة لانتقاد المستهلكين وسبباً من اسباب بؤسهم وشقائهم . »

ونحن اذا ما اردنا ان نقتصر عن اسباب جميع المروب منذ ان عرف التاريخ التنظيم الرأسالي للمجتمع والدولة فاننا نره اسباب كل حرب إلى هذا القانون - قانون المنافسة والمزاحمة . وانني هنا ارى من الفائدة ان أنقل من جديد

تحليل للأحداث العالمية عقب الحرب العالمية الأولى ، هذا التحليل الوارد في كتابي « الأهداف الاستعمارية وراء مشروع مارشال » الصادر عن دار اليقظة العربية بدمشق وذلك من الصفحة ٤٦ إلى ٣١ ، والذي قد يساعد القارئ على تفسير أسباب الحرب العالمية الثانية على ضوء قانون المناسة والمراحنة :

ـ تعاقبت الشهور والسنون ولم يلمس الرأسماليون الاميركيون ان الرئيس روزفلت قد فشل في تدعيم مركزهم وتوسيع نفوذهم وترويج تجارتهم ، وتبين ان الخل الذي جاء به برؤاجه المعروف به «نيو ديل» (New Deal) لم يكن سوى مسكن لمرض عضال مزمن . وقابلوا بين الانتاج الاميريكي الحالي وقدرته على غمر الاسواق العالمية وإجتناب الارباح ، وبين الكمية القليلة التي يبيعونها ويتصدرونها فتحسروا وتآلموا ، وخيراً هدتهم غريزة حب الكسب الى الاسباب الحقيقة التي تقف بينهم وبين تحقيق اهدافهم ، وكان أحد هذه الاسباب هو الحرب اليابانية في الصين ، هذه الحرب التي حالت دون استقرار رؤوس اموالهم فيها واستثمار اسواقها الداخلية الواسعة ، وتجنيد الـ ٥٠ مليوناً من سكانها في عداد مستهلكي البضائع الاميركية . كما وان نو الصناعة اليابانية وتقدمها السريع أرهب رأساليي اميركا وبريطانيا ، وتحققوا من ان اليابان إذا بقيت تتبع خططها في هذا المضمار فستخلق لها مشاكل معقدة وازمات مدمرة لا طاقة لها على تحملها ومواجهتها ، وذلك لأن الصناعة اليابانية تتاز عن الصناعتين الاميركية والبريطانية بعامل هام ألا وهو رخص أجور الایدي العاملة اليابانية ، وهذا مما يجعل تكاليف الانتاج زهيدة وتنتها في الأسواق العالمية رخيصاً ، وبذلك تتمكن البضائع اليابانية من منافسة البضائع والسلع الاميركية في الأسواق العالمية .

وكان الولايات المتحدة تعلم مدى فقر اليابان في المواد الأولية اللازمة للصناعة ، ولذلك كانت تنتظر الغزوات اليابانية لطرد الانكليز والهولانديين والفرنسيين من مستعمراتهم في المحيطين الهندي والهادئ ، بفية ان تحمل

اليابان محظوظ لأن إمكانيات تلك المستعمرات الدفينة منها والمستغلة كانت تغري المغامرين اليابانيين على احتلالها واستعمارها لضمان مواد الخام والأسواق ، ولهذا فلقد كانت خطة اليابان التوسعية تستهدف تحقيق أمنين ، الأول : تأمين المواد الأولية للصناعة اليابانية عن طريق إحتلال الممتلكات والمستعمرات الهولندية والبريطانية والفرنسية ، أما الأمر الثاني فهو إيجاد الأسواق لتجارتها لتمكين صناعاتها من التقدم والنمو ...

وكانت الرأسالية الأميركيّة ترقب تقدّم الجيوش اليابانية في الصين بقلب واجف خائف ، وكان التناقض المتزايد في صادرات أميركا إلى ذلك القطر يقدم إلى أرباب الصناعات الأميركيّين الدليل المادي على مجرم اليابان بحقهم وحرمانهم من جزء غير يسير من الارباح التي كان باستطاعتها اجتناؤها فيما لو لم تقدم اليابان على غزو الصين .

وقد اظهر واقع الحال للطبقة المالية الأميركيّة حدة الكوارث والازمات التي ستنزل بها فيما لو تركت اليابان تتسلّم الصين حيث خشيّت الشركات الأميركيّة ان تتوجه الجيوش اليابانية عقب تصفيّة الصين إلى ابتلاع ممتلكات ومستعمرات بريطانيا وهولاندا وفرنسا ، وهذا ما سيقضي على ملايين الدولارات الموظفة في تلك الممتلكات والمستعمرات ، لذلك أخذت الحكومة الأميركيّة تدّي الصين بالمساعدات المالية والمحربة معتبرة الجمهوريّة الصينيّة الخط الداعي الاول عن مصالحها الحيويّة في الشرق الأقصى .

ونشأ أيضًا في القارة الأوروبيّة منافسان خطراً للولايات المتحدة الأميركيّة وبريطانيا ، وأعني بهذين المنافسين المانيا النازية وإيطاليا الفاشية ، واتفق هاتان الدولتان مع اليابان على اقتسم الامبراطوريات المالية الثلاث : بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة ، وتوزيع ممتلكاتها ومستعمراتها ومنتجاتها الصناعية فيما بينها ، فكان من المتفق عليه ان تصبح الامبراطورياتان البريطانية والفرنسية في افريقيا والشرق الأوسط من فصيل الرأسماليتين الألمانيّة والإيطالية ، أما الامبراطورية الهولندية وممتلكات بريطانيا في جنوبي شرق آسيا والفيليبين

والصين فكان من المقرر أن تكون حصة اليابان ، لذلك أصبح الصراع بين المانيا واليابان من جهة ، والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا من جهة أخرى مرتقباً ومنتظرأً .

وكانت رؤوس الاموال الالمانية قد استطاعت قبل نشوب الحرب بأعوام قلائل ان تستعيد مكانتها السابقة في البلقان ودول وسط اوروبا وأميركا الجنوبية ، وقد مكن المانيا مركزها الجغرافي في قلب اوروبا وقوتها العسكرية الضخمة ونهضتها السياسية من ان تعقد معاهدات تجارية مع معظم دول اوروبا ، وهذه المعاهدات خلقت للدولتين الاوروبتين بريطانيا وفرنسا المشاكل والازمات ، فأفلتت معظم دول البلقان اسواقها في وجه السلع البريطانية والفرنسية وحق الاميركية .

واستطاعت التجارة الالمانية ان تتسرب عن طريق ايطاليا إلى البلدان الواقعة في آسيا وافريقيا ، وكان جودة السلع الالمانية والسمعة التجارية الطيبة التي تتمتع بها هذه الدولة أثر بالغ في ترويج التجارة الالمانية ، واتبعت المانيا خلال الحكم النازي طريقة المقايضة والمبادلة في تجاراتها الخارجية ، وجاء خروجها عن قاعدة الذهب كأساس لنقدتها ضربة شديدة نزلت بالتجارة الدولية ، فكانت المانيا تستورد ما تشاء من البضائع والسلع ، وتسترد أثمان مستوراداتها بضائع استهلاكية ذات دورة واحدة ، وكثيراً ما كان يحدث أن تدفع المانيا الاسبرين والایتيرين ثمناً لوارداتها من البرتغال والغذاء الخ ...

وهذا النوع من المعاملات التجارية المدعومة بالقوة السياسية والتهديد العسكري جعل من معظم جارات المانيا زبائن وعملاء لها ، وكادت المانيا خلال الحكم النازي تحكر معظم الاسواق الاوروبية ، فسيطرت شركاتها الكهربائية على معظم دول اوروبا وتبدلت مقدرات الصادرات الانكليزية والفرنسية والاميركية الى اوروبا الى ما يقارب النصف ، لهذا أصبح القضاء على المانيا أغلى ما للامبراطوريات المالية الثلاث من أمنية .

اما ايطاليا الفقيرة ذات الصناعة المفتولة والهزيلة فلقد حاولت ان ترفع ظلم الطبيعة عنها باتباع خطط توسيعية وتنفيذ برامج استعمارية . وكانت الولايات المتحدة لا تكترث او تغير أدنى التفات لحركات ايطاليا ومظاهراتها السياسية لانها كانت متيقنة من ان هناك استحالة مادية تحول دون تحول ايطاليا الى دولة صناعية وذلك لأنعدام المواد الأولية والطاقة الحركة فيها ، لهذا كان من الصعبه يمكن ان تتمكن ايطاليا من المنافسة والمزاحمة في الاسواق العالمية لأن انتاجها سيكون باهظ التكاليف ، لأن معظم الصناعات الايطالية كانت تدار بالفحم المستورد من المانيا وانكلترا ، وبالبرول المبتاع من الشركات الاميركية الانكليزية الهولاندية .

غير ان الرأسالية الايطالية وجدت انها إذا استطاعت ان ترث الامبراطوريتين البريطانية والفرنسية وان تحمل مكانهما في استعمار ممتلكاتها ومستعمراتها فقد تستطيع ان تدعم مركزها الصناعي . فاقدمت ايطاليا في ساعة طيش ولحظة عاقة على إحتلال الحبشة ضاربة بتهديدات عصبة الامم وعقوباتها الاقتصادية .

وقد يتساءل القارئ لماذا خذلت عصبة الامم الحبشة ؟

ان سبب خذلان عصبة الامم للحبشة يعود الى ان الحكومتين البريطانيه والفرنسية قد وجدتا ان مغامرة ايطاليا في الحبشة مغامرة فاشلة من الوجهة الاقتصادية ، كما وان احتلال الحبشة قد عجل بحلول الازمه الاقتصادية في ايطاليا ، فلقد بلغ العجز السنوي في موازنة الحكومة الايطالية لعام ١٩٣٥ ثلاثة مليارات «لير» وهبطت قيمة الذهب المخزون في ايطاليا والاسهم والسنداط المعتبرة قيمتها ذهباً من ١١٠٦١ مليون «لير» عام ١٩٢٨ الى ٤٠٢٢ مليون «لير» في اذار من عام ١٩٣٧ (وهذه الاحصاءات مأخوذة عن النشرة السنوية للاحصاءات الصادرة عن عصبة الامم السابقة ، لعام (١٩٣٧ - ١٩٣٨) وعليينا ان لا ننسى اسقاط ثلث قيمة المبلغ المتبقى بسبب تدهور قيمة اللير الحقيقية الى ما يقارب ثلثها . كما ان صناعة السيارات الايطالية التي كانت

الاولى عام ١٩٢٢ من حيث الطاقة الانتاجية ، تدنت هذه الطاقة الى ما يقارب الثلاثين عاماً كانت عليه عام ١٩٢٧ إذ انتجت في ذلك العام ٦٥ ألفاً من السيارات بينما لم تتمكن في عام ١٩٣٦ من انتاج سوى ٤٨ الف سيارة كما وان قيمة الصادرات الايطالية الشهرية هبطت من ١٣٠٢ مليون لير عام ١٩٢٧ إلى ٤٥٥ مليون لير عام ١٩٣٦ أضف إلى ذلك ان ايطاليا لم تكن في تلك السنة وفي السنوات التي اعقبتها تملك اي نقد اجنبي او اعتمادات في بنوك أجنبية .

هذه الازمة الاقتصادية الخانقة دفعت بالرأسمالية الايطالية الفقيرة الى المقامرة والمخاطرة في خوض حرب عالمية قد تعود عليها في حالة النصر ببعض الفوائد والارباح .

اما الولايات المتحدة فلم يكن لديها اي سبب لحربة ايطاليا وادلالها في حلبة الكفاح العالمي ، لأن اميركا كانت تدرك ان الحرب مع ايطاليا هي حرب عدية الفائدة وغير مجده ، فالولايات المتحدة لم تكن تخشى مواجهة ايطاليا الصناعية والتجارية كما كانت تخشى مواجهة اليابان والمانيا في هذين الحقلين . وكلنا نذكر محاولات الرئيس روزفلت لتجنب ايطاليا دخول الحرب العالمية الثانية ولكن المانيا التي كانت تفلت لها عن حليف منها كان نوعه او قوته رحبة بایطاليا ترحيباً حاراً ، فارتمت الفاشستية في احضان النازية وتعاونتا والعسكرية اليابانية ، واعلنت الرأسماليات الالمانية والايطالية واليابانية الحرب على الامبراطوريات المالية الثلاث اميركا وبريطانيا وفرنسا مدفوعة بقانون المنافسة والمواجهة على الاسواق والمراوح .

٣ - قانون التمركز على الانتاج وحصره

إن قانون المنافسة الذي يدفع بالشعوب والأمم إلى خوض غمرات الحروب من أجل الرأسمالية والرأسماليين ، يدفع ايضاً بالشركات الى الاصطراع والصراع بعضها ضد بعض ، إذ تحاول الشركات الكبرى تصفيه الشركات

الصغيرة او المتوسطة وذلك اما عن طريق ابتلاعها بشراء اكثريه اسهمها او عن طريق منافستها منافسة شديدة بحيث تؤدي وبالتالي الى افلاس الشركات الصغيرة او المتوسطة ومن ثم انهيارها انهياراً كلياً كاملاً .

وعن قانون التمركز والقدرة على الانتاج وحصره تنشأ الاحتكارات في كل اشكالها من شركات متحدة (Corporation) وموحدة (Trust) وقد لخص الاقتصادي الالماني هلفردنج المزايا الاساسية للنظم الاحتكارية بالنقاط التالية :

١ - تسوية تقلبات التجارة وبذلك يكفل للمشروعات نصيباً من الربح اشد ثباتاً واستقراراً .

٢ - يترتب على هذا النظام القضاء على المنافسة والمزاحمة في الاسواق الداخلية والخارجية .

٣ - يجعل في الامكان اجراء التحسينات الفنية مما يؤدي الى اجتناء مرابح اعلى مما تحصل عليه المشروعات الخلوص (غير المتحدة والموحدة) .

٤ - يزيد من قوة مركز المشروعات المتجدة والموحدة بازاء زميلاتها الخلوص ويجعلها أقدر على المنافسة في فترات الكساد الخطيرة حينما لا يتمشى هبوط اسعار المواد الاولية مع هبوط اثمان السلع المصنوعة .

وتلعب المصارف الكبرى دوراً كبيراً في تحقيق اغراض الشركات الموحدة والمتحدة لتصفية الشركات الخلوص إذ ان المصارف تعمد في اوقات الازمات إلى منع القروض عن الشركات الخلوص اولاً، وتقوم بطالبة هذه الشركات بتسديد ما عليها من ديون ، وبهذا تدفع بالشركات الخلوص الى افلاس والانهيار ، وأفلاس مثل هذه الشركات الخلوص يؤدي إلى افلاس المصارف الخلوص ايضاً ، فالشركات المتوسطة والصغرى تتعامل عادة مع المصارف المتوسطة والصغرى ، لذلك فان افلاسها يؤدي حتى الى افلاس المصارف التي تتعامل معها ، وبهذا يتركز المال العامل في المصارف المتجدة والموحدة كما تتركز المشروعات الصناعية في الشركات المتجدة والموحدة . وكثيراً ما تعمد الشركات المتجدة والموحدة

إلى افتعال الازمات الاقتصادية بغية تحطيم الشركات الخالص ، إذ تقدم الشركات الموحدة والمتعددة على إغراق السوق بالسلع والبضائع لفترة معينة ، وهذه العملية تقود إلى إنخفاض سعر السلعة إلى ما دون قيمتها الحقيقة ، وهذا ما يعني الخسارة . ولما كانت الشركات الخالص لا تستطيع احتلال الأسواق لفترة زمنية طويلة ، ولما كانت أبواب المصارف الكبرى مغلقة في وجهها للاستدانة والقروض ، لذلك سرعان ما تفلس هذه الشركات الخالص وتتخلي الطريق أمام الشركات الموحدة والمتعددة لتأثير بالأسواق والربح . أضعف إلى ذلك أن الشركات الموحدة أو المتعددة والتي توظف الآف العمال والتي تعمد إلى وسيلة للإنتاج الغزير (Mass Production) فتندو - نتيجةً لـ وسيلة الإنتاج الغزير تكاليف صنع السلعة - أقل بكثير من تكاليف السلعة التي تصنّع الشركات الخالص ، والتي لا تتمكنها طاقات رأسها من اللجوء إلى وسيلة « الإنتاج الغزير » وهذا ما يعني استيلاء الشركات الموحدة أو المتعددة على زمام المبادرة في الأسواق وإغلاق الأسواق أمام منتجات الشركات الخالص .

وكلنا يذكر اثر الاحتكارات الرهيب المدمر خلال الأزمة البترولية بين ايران وشركة البترول الانجليزية الإيرانية ، فقبل ان يقدم مصدق رئيس وزراء ايران على تأمين البترول الإيراني كانت ايران الدولة الأولى المنتجة للبترول في الشرق الأوسط ، ولكن ما كاد مصدق يؤمم البترول الإيراني حتى غدت ايران الدولة الأخيرة في انتاج البترول في هذه المنطقة ، وسبب ذلك ان الشركات البترولية الكبرى من أمريكية وبريطانية وهولندية وفرنسية تكون اتحاداً يحتمل السوق العالمية احتكاراً كلياً شاملًا ، ويقوم هذا الاتحاد بمراقبة السوق العالمية ودراسة احتياجاتها المتزايدة من البترول ، وهو يوازن دائمًا بين التوسيع في انتاج البترول وبين حاجات السوق بحيث لا يطغى الانتاج على حاجة السوق فينخفض السعر العالمي للبترول ، لذلك وعندما اقدم مصدق على تأمين البترول في ايران وجّه الاحتكار البترولي الغربي ضربة رهيبة إليه ، وجاءت هذه الضربة متمثلة في إغلاق السوق الدولية في وجه البترول الإيراني ، فلم تستطع ايران ان

تبين سوى كميات جد قليلة من بترولها ، وتدنى انتاج ايران من البترول بما يقارب ٤٥ مليون طناً سنوياً الى ما يعادل ثلاثة ملايين طناً ، ولكي تعيش الشركات الكبرى النقص من البترول الذي نشأ عن تأميم مصدق للبترول أقدمت على التوسع في انتاج البترول في كل من المملكة العربية السعودية والكويت والعراق . ولذلك فنحن إذا ما درسنا الزيادة في انتاج هذه البلدان من البترول نكتشف ان هذه الزيادة تعادل كمية البترول الايراني المنتج قبل التأميم مضافاً اليها حاجات السوق الدولية المتزايدة .

ويرى الاشتراكيون ان التنظيم الرأسمالي اذا ما قابع سيطرته على الاقتصاد العالمي فانه ستحكم شركة موحدة واحدة بقدرات العالم الاقتصادية ، وهذا التحكم والسيطرة يفرضه احد القوانين الهامة الذي تتمشى وفقه الانظمة الرأسالية في العالم ، وأعني به قانون التمركز والقدرة على الانتاج وحصره . لذلك كان الاشتراكي الفرنسي « لويس بلان » جد مصيّب عندما قال ان المنافسة والمزاحمة لا تقودان إلى تخفيض الاسعار ، بل انما تقودان إلى الاحتكار والنظم الاحتكارية ، وان تخفيض الاسعار هو حالة وقتية لاعادة رفعها .

٤ - قانون السعر المخفض

يقول هذا القانون بالمحافظة على الارباح مع انتهاء ، وذلك عن طريق التوسيع الميكانيكي في الانتاج وتقليل استعمال اليد العاملة . اما ما ينشأ عن انخفاض في تكاليف السلعة عن طريق تقليل الاجور الناشيء عن الاستعاذه بالالة عن العمال فهو الذي يؤدي إلى تخفيض سعر السلعة ، وبذلك يحافظ الرأساليون على ارباحهم دون ان يؤثر تخفيض سعر السلعة على مقدار الارباح التي تدخل عليهم ، وهذا كله بسبب ان المشكلة قد حلّت عن طريق تقليل استعمال اليد العاملة ، وبالتالي الانحدار بالتكميل عن طريق

الاستغناء عن دفع الاجور نعمال حلت الآلة محلهم . اما الآلة الجديدة فانها تتحول الى رأس مال ثابت ليسد ثمنه بعد مضي وقت قليل من ادخاله حقل الانتاج .

ولنضرب الآن مثلاً على ذلك :

لنقول ان هناك رجلاً يملك مصنعاً لصنع الأحذية ويعمل في هذا المصنع عشرون عاملًا اجر العامل خمس ليرات سورية ، وينتج عشرة ازواج من الأحذية يبيع الزوج الواحد منها بعشرين ليرة سورية ، وبربع قدره خمس ليرات سورية في الزوج الواحد . من هذا المثل ينشأ ما يلي :

اجرة العمال : ١٠٠ ليرة سورية

ثمن المواد الاولية : ٢٥٠ ليرة سورية

الربح : ٥٠ ليرة سورية

بذلك يكون المجموع : ٤٠٠ ليرة سورية

وللفرض ان صاحب هذا المصنع استورد آلة لصنع الأحذية وهدفه على الاقل سيكون المحافظة على ربحه الذي اعتباره خمسين ليرة سورية ، وقد ادت هذه الآلة الى الاستغناء عن ١٨ عاملًا وأبقت على عاملين لإدارتها ، ولنعتبر ان هذين العاملين باعتبارهما عاملين فنيين سيتقاضيان اجرًا مضاعفًا للأجر الذي كان

يتقاضاه العاملان في الورشة غير الآلية ، عندئذ تصبح العملية على الشكل التالي:

اجرة العاملين + استهلاك الآلة (مقداراً بخمس ليرات) = ٠٢٥ ليرة

ثمن المواد الاولية ولنعتبر هذا الثمن لم يتغير = ٢٥٠ ليرة

الربح الثابت لصاحب العمل = ٥٠ ليرة

مجموع تكاليف صنع العشرين زوجاً من الأحذية = ٣٢٥

سعر الحذاء المخفض = $\frac{325}{20} = 16,25$ ليرة سورية لاذن يكون قد خفض

سعر الزوج من الحذاء ٣٧٥ ليرة سورية ، وذلك دون ان يتأثر ربح صاحب مصنع الأحذية ، إذ انه حافظ على مستوى الذي هو خسون ليرة سورية ، كما

وأنه قد حقق بالإضافة إلى ذلك كسباً آخر هو إنماء وأس ماله العامل الذي هو الآلة في هذا المثال .

ما ورد يتضح أن الآلة تشكل عاملًا أساسياً في تحقيق السعر الخفيف بغية الربح .

ومن الجدير بالذكر أن الرأسماليين في مراحل الصناعة الأولى كانوا يعمدون إلى تطبيق هذا القانون عن طريق تنفيذ المبدأ الفائق :

«أكبر قدر من ساعات العمل لقاء أقل قدر من الأجور» .

لا شك أن القاريء الكريم يدرك مما أوردناه من شرح للقوانين الأربع التي تنظم نشاطات النظام الرأسمالي مدى التناقض الحاد الذي يكتنف هذا النظام ، ولا بد لهذه المتناقضات من القضاء عليه ، وذلك إذا تاهضت الشعوب والأمم بعزם واحلصال محاولات الرأسماليين اليوم للتقضاء على العالم بواسطة حرب هيدروجينية لا تبقي ولا تذر .

د — محاولات لكنها فاشلة

تشعر الانظمة الرأسمالية اليوم بدنو أجلها المحتوم ، ولذلك فهي تحاول ان تقنع او تؤخر على الاقل المصير القاتم الرهيب الذي ينتظرها على ايدي الشعوب ، لذلك فانها تتستر احياناً تحت الاشتراكية المزيفة والمحاولات الاصلاحية الفاشلة . وكان اول «مصلحة» (اذا سلمنا ان الرأسالي يمكن ان يكون مصلحة) هو هنري فورد صاحب مصانع السيارات المشهورة ، اذ لم يتحقق هذا الصناعي الاميركي ان سير الصناعات ونموها مرتبطة ارتباطاً مباشراً بالقدرة الشرائية للفرد ، لذلك استن هنري فورد دستوراً يقول برفع مستوى الاجور وتخفيض ثمن السلعة وتحقيق الارباح على حساب التوسيع في الانتاج . لذلك أقدم فورد بصورة مفاجئة

على رفع اجرور عماله ١٠٠٪ وكانت هذه المحاولة التي قام بها هنري فورد تعتبر بثابة جنون مطبق لدى زملائه من الرأسماليين، لكنها كانت محاولة ناجحة ارغمت الكثيرين من زملائه على اتباعها ومن ثم تعيمها . ولكن هل استطاعت هذه المحاولة ان تجنب الولايات المتحدة الاميركية الازمات ؟ ان مبدأ السعي لتحقيق الربح كان ابداً المسيطر المتحكم، وهذا المبدأ سرعان ما يهدم كل محاولة اصلاحية. فالتوسيع بالانتاج يقتضي تعليم الآلة في الصناعات ، وتعليم الآلة يؤدي الى طرد العدد الغفير من العمال ، وطرد مثل هذا العدد يؤدي الى انتشار البطالة، وانتشار البطالة يؤدي الى هبوط القدرة الشرائية ، وهبوط القدرة الشرائية يؤدي وبالتالي الى الكساد .

وهكذا فان عمل هنري فورد ذاك يعتبر كعمل الثعلب الذي اراد ان يقسم قالب الجبن بالتساوي بين المهرتين مستعملاً الميزان، فكان ان الثعلب لم يستطع ان يوازن بين قطعه قالب الجبن، لذلك كان يعمد الى تحقيق هذا التوازن آنا بالتهم جزء من هذه القطعة، واخرى بالتهم جزء آخر من القطعة الثانية، وكان الثعلب خبيثاً ماذ انه كان يتهم دائمًا على صورة تحمل القسمة بين المهرتين لا يمكن ان تتساوی او تتوافق . وكانت النتيجة ان التهم الثعلب كامل قالب الجبن دون ان يستطيع تحقيق التوازن بين قطعاته، وهذا هو حال الرأسمالية .

وجاء عقب هنري فورد الرئيس فرانكلين ديلانو روزفلت ليحل الازمة الاقتصادية الآخذة بخناق الأمة الاميركية وجاء بشروعه المعروف باسم «نيوديل» (Newdeal) ، واقدم ورفيقه هاري هوبكنز على اعتقاد سياسة الصدمة والاحسان بغية التفريح من الازمة فخصص ٣٣٠٠ مليون دولار للتمهير والمعمران. وزاد الدين الوطني بنسبة ٥٠٪ وقام بـ كهربة سد وادي «التنسيه» وخفض قيمة الدولار ٤٠٪ كي يمكن الفلاحين والمشروعات من تخفيض ديونها الحقيقية الى نسبة ٦٠٪ .

ولكي يوازن روزفلت بين الانتاج والاستهلاك استصدر القانون المعروف باسم «النقاوة الصناعية الوطنية» (National Industrial Recovery)

وحدد هذا القانون حدًّا أدنى لل أجور ، ومعدلاً أعلى ل ساعات العمل ، فتدنت ساعات العمل من ٥٦ ساعة في الأسبوع عام ١٩٢٩ إلى ٢٥ ساعة في الأسبوع عام ١٩٣٦ ، وأباح لقاء ذلك إنشاء التروستات الذي كان يحرمه القانون المعروف باسم قانون « كلابيتون » وذلك بغية عدم السماح بالمنافسة والمضاربة ، وسمح للشركات بأن تعقد اتفاقيات خاصة فيما بينها وبين موزعي البضائع لضمان استقرار في الأسعار ، ولكن هل استطاع روزفلت أن يجعل الأزمة حلاً جذرياً؟ إن الأحصاء التالي الوارد في كتاب « المشاكل الاقتصادية الاميركية » يظهر مدى « النجاح » الذي لاقاه روزفلت ومشروعه « نيو ديل » :

كان عدد العاطلين عن العمل عام ١٩٢٩ والمسجلين في النقابات يبلغ ١٣,٨ مليون عامل انخفض عددهم عام ١٩٣٩ إلى ١٠,٦ .

ويأتي هتلر وموسوليني من بعده ويعمدان إلى سياسة إقتصاد الدولة لمعالجة مشاكل بلادهما الاقتصادية ، ولكن إلى أين ينتهي بها المطاف؟ إلى الحرب ، الحرب العالمية الثانية التي تدخلها الولايات المتحدة الاميركية فتتلاشى في أميركا البطالة ، ويبقى فجأة عدد العمال العاطلين عن العمل من ١٠,٦ مليون عامل عاطل عن العمل عام ١٩٣٩ إلى صفر مليون عامل عاطل عن العمل عام ١٩٤١ . لا سبيل للرأسمالية إذن غير الحرب لتحقيق السلام بين المنافقات التي تكتنف جوهرها . وعلى الشعوب أن تدفع الدماء والنار والعرق لاحلال السلام بين المنافقات في النظام الرأسمالي .

واليوم نرى الولايات المتحدة الاميركية تتبنى شئ المشاريع : من مشروع مارشال ، إلى النقطة الرابعة ، إلى مشروع إيزناور ، إلى مشروع المساعدات والمنح الاميركية للدول « الصديقة » ، وذلك كله بغية الإبقاء على دوران عجلات الآلة في الولايات المتحدة وتجنب العمال البطالة والبضائع الاميركية الكساد .

ولكن هل نجحت كل هذه المشروعات ؟ إن الأحصاءات الأخيرة تقول بأن عدد العمال المتعطلين عن العمل قد تجاوز الخمسة ملايين عامل . فهل ستتفجر

الرأسمالية وتطوراتها وتصبح هباءً منثوراً؟ أم ان الرأسمالية كعادتها ستفجر هذا العالم وتحيله الى مقبرة للبشرية؟ أن الشعوب والامم الوعية وحدها تستطيع ان تجيب على هذا السؤال.

د — احتكار واحد :

قلنا فيما تقدم إن قانون المنافسة ينظم علاقات المشروعات بعضها ببعض على أساس المزاحمة على الأسواق الداخلية ، ويدفع بالتالي بالدول ذات الأنظمة الرأسمالية الى الصراع والخروب بعضها ضد بعض بغية الاستئثار بالمستعمرات التي تومن لها اسواقاً خارجية ومواد اولية . غير افنا نلمس اليوم ونرى بأم أعيننا ان معمساً واحداً ينتظم جميع الدول الرأسمالية تقريباً واعني بهذا المعسكر ، المعسكر الغربي ، وأنه لا أثر لخلافات جوهرية بين اعضاء هذا المعسكر . وقد رأينا دول المعسكر الرأسمالي جميعاً تعقد بينهما الأحلاف العسكرية كحلف الأطلنطي ، وميثاق بغداد ، وحلف جنوبي شرق آسيا ، وغيرها من الأحلاف الاقتصادية والسياسية والثقافية ، فهل سبب هذا الوفاق بين الأنظمة الرأسمالية في البلدان الغربية يعود اولاً واخيراً إلى خوف هذه البلدان من اجتياح جيوش المعسكر الاشتراكي لبلادها ؟

إنني أرى ان هذا ليس بالسبب الجوهرى الوحيد الذي يدعى هذه البلدان الرأسمالية الى تناصي خلافاتها ونبذ قانون المنافسة ، هذا القانون الذي يعتبر قانوناً جوهرياً يسير بوجب منطقه النظام الرأسمالي في كل بلد وقطر ، بل ان هناك سبباً جوهرياً آخر وهو ان العالم الغربي بمجموعه وبكل ما يملک من مشروعات وشركات قد اصبح «تروست» أميركياً واحداً وشركة أميركية موحدة واحدة .

لقد اشار الاشتراكي الفرنسي « لويس بلان » الى ان قانون المدافسة يؤدي حتماً إلى قانون التمركز والاحتكار ، وان الشركات في الدول الرأسمالية تصنفي القوية منها الضعيفة ، وهي تتوجه وفق هذا القانون لتصبح اخيراً بمجموعها شركة موحدة (تروست) واحدة . وهذه الحقيقة تتطبق على الدول الرأسمالية كما تتطبق على الشركات في الدولة الرأسمالية ايضاً .

فعقب الحرب العالمية الثانية خرجت جميع الدول الرأسمالية من بريطانية وفرنسية وهولاندية والمانية ويانانية وبليجيكية وغيرها، مفلسة مدينة. فيبريطانيا وحدها كانت مدينة الولايات المتحدة وللعالم بأكمله من عشرين ملياراً من الجنيهات الاسترلينية، وعمدت بريطانيا نتيجة لديونها الهائلة هذه إلى اتباع نظام شديد من التقنين بقيمة موازنة ميزان مدفوعاتها، غير أن هذه التدابير القاسية لم تفلح إذ كتبت جريدة « الايكونومست » في عددها الصادر بتاريخ ٢٠ كانون الثاني عام ١٩٤٦ مقالاً قالت فيه ان الديون البريطانية تتزايد يوماً بعد يوم، وأن ميزان تجاراتنا الخارجية في عجز مستمر، لذلك اضطرت بريطانيا إلى بيع الكثير من شركاتها العاملة في الخارج فباعت في ٦ تشرين الأول سنة ١٩٤٥ جميع ما تملك من استثمارات في الصناعات الكندية بمبلغ قدره مليار دولار، ومن ثم باعت للمكسيك شركة الخطوط الحديدية بمبلغ عشرة ملايين دولار^٢، وذلك بتاريخ العشرين من أيار ١٩٤٦. وفي الثالث من أيلول عام ١٩٤٧ أعلن رئيس الجمهورية المكسيكية ان الاتحاد جمهوريات المكسيك قد ابتعث من بريطانيا وهولاندا آبار الزيت المكسيكي بمبلغ ٢٥٠ مليون دولار^٣.

واضطرت بريطانيا تحت ضغط الازمة الخانقة التي كانت تعانيها ان تقدم على عمل لا مثيل له في تاريخها اذ أنها باعت في ١٥ أيلول عام ١٩٤٧ الى البنك

^١) التقرير الاقتصادي لجنة الأمم المتحدة لعامي ١٩٤٥ - ١٩٤٧ صفحة ٢٩٨ .

٢) التقرير الاقتصادي لجنة الأمم المتحدة لعام ١٩٤٥ - ١٩٤٧ صفحه ٣٠٩ .

^{٣٤٥}) التقرير الاقتصادي لجنة الأمم المتحدة لعام ١٩٤٥ - ١٩٤٧ ص ٣٤٥ .

الأميركي المعروف باسم « فيدرال ريزرف بنك اوف نيويورك »
(Federal Reserve Bank of New York)

ذهباً من احتياطياتها بقيمة مئة مليون دولار^١. وفي ١١ تشرين الاول عام ١٩٤٧ طلبت بريطانيا من الاتحاد الأوروبي افريقيا قرضاً قدره ثمانون مليوناً من الجنيهات الذهبية فاجبىت إلى طلبها^٢، أما فرنسا فلم تكن حالها باحسن من حال بريطانيا، فلقد أعلن رئيس الوزارة الفرنسية في جلسة البرلمان الفرنسي المنعقد بتاريخ ١٩ أيار ١٩٤٧ ما ترجمته بالحرف الواحد :

« ان العجز في ميزان المدفوعات الفرنسية يبلغ ٩٩٠ مليون دولار، وان تلافيه يقتضينا استنزاف ثلثي الذهب المخزون في بنك فرنسا . واخيراً تبين بحلاً ووضوح أن الدولة الوحيدة التي كسبت الحرب وجنت منها الفوائد الطائلة والمزاحم الضخمة كانت الولايات المتحدة الأميركيّة وحدها ، اذ قفز انتاجها الصناعي من ١٠٠٪ عام ١٩٣٧ إلى ٢١٢٪ عام ١٩٤٣ اما انتاجها الزراعي فقفز من ١٠٠٪ عام ١٩٣٧ إلى ١٢٨٪ عام ١٩٤٤ وقفزت صادراتها من ٣٣٦٠ مليون دولار عام ١٩٣٧ إلى ١٤٥٤٠ مليون دولار عام ١٩٤٤ (هذا الاحصاء وارد في النشرة السابعة للمالية والاحصاء الصادرة عن هيئة الامم المتحدة في شهر تموز سنة ١٩٤٨) وامتلأت قلمة « نوكس » بذهب الامم الاوروبية ، وهنا ادرك الرأسماليون الأميركيون ان الفرصة قد حانت لهم لكي يسيطروا على الاقتصاد الأوروبي ، ويملكون معظم المشروعات الاوروبية ، وان يجعلوها احتكاراً أميركياً واحداً ، وعقدوا العزم على لا يقتربوا الخطيرة ذاتها التي اقترفها الرئيس « هيربرت هوفر » عقب الحرب العالمية الأولى ، تلك الخطيرة التي مكنته الدول الاوروبية من إعادة بناء اقتصادها دون ان تشترك الرأسمالية

١) التقرير الاقتصادي لميثة الامم المتحدة لعامي ١٩٤٥ - ١٩٤٧ صفحة ٣٤٦

٢) التقرير الاقتصادي لميثة الامم المتحدة لعامي ١٩٤٥ - ١٩٤٧ صفحة ٣٤٨

٣) التقرير الاقتصادي لميثة الامم المتحدة لعامي ١٩٤٥ - ١٩٤٧ صفحة ٣٣٤

الأميركية في ملكية المشروعات الأوروبية وتوجيهها. وببدأ الرأسماليون الأميركيون يطالبون بزعامة الدول الرأسمالية الأخرى، ومعنى الزعامة هنا امتلاك قدر « كبير » من الأسماء في الشركات الأوروبية، فنشرت جريدة « نيويورك تايمز » في عددها الصادر في ١٢ آذار عام ١٩٤٧ مقالاً جاء فيه :

« لقد انتهى عصر السياسة الانعزالية وحل محله عصر تحمل الولايات المتحدة الأميركية لمسؤولياتها الصالحة . إن حكومتنا تلك اليوم اسطلولاً بحرياً أضخم عدداً وعدداً من جميع ما اجتمع للعالم من أساطيل ، ولبلادنا القوة الجوية الكبرى والقواعد البحرية والجوية الموزعة على جميع أنحاء العالم ، وبيدها سر القنبلة الذرية ، وموازنتها الحربية أضخم موازنة عرفها العالم ».

وقف المستر تشرشل في مجلس العموم البريطاني يؤمن الإمبراطورية البريطانية الفاربة بخطاب القاه في ٧ آذار عام ١٩٤٧ ونشرته جريدة « التايمز » ويقول :

« إننا نشهد اليوم بقلوب تنفطر كمداً وأسى زوال الإمبراطورية البريطانية وأفول نجمها المتألق بجدأ ».

وكان المستر أميري وزير المستعمرات البريطانية في وزارة المحافظين قد سبقه إلى نعي الإمبراطورية البريطانية مهاجماً الرأسمالية الاميركية الرامية إلى تصفيتها الإمبراطورية حيث قال^١ :

« إن النظام والوسائل التي تتبعها حكومة الولايات المتحدة تهدف إلى تمكين فائض الانتاج الأميركي من غزو العالم وتوطيد سلطان أرباب المال الأميركيين وهذا ما سيعود على العالم بالفوضى وعدم الاستقرار وخاصة على تلك البلاد التي تملك وحدات اقتصادية محدودة النشاط وسيكون من نتائج السياسة

١) مجلة الشؤون الخارجية (أميركية) عدد فبراير عام ١٩٤٧ صفحة ٥٩٢ .

الاميركية إنعدام التعاون بين الدول لتحقيق مصالحها المشتركة».

غير ان الرأسمالية البريطانية كانت أضعف من ان تصمد امام اجتياح اثر الرأسمالية الاميركية الرهيب لشروعاتها ولأسواقها، لذلك استسلمت لها استسلاماً كلياً وأصبحت جزءاً بسيطاً من الاحتكار الاميركي ، ولم تجد تحذيرات اللورد « ولتون » زعيم حزب المحافظين في مجلس اللوردات قتيلًا ، فلقد نشر المذكور مقالاً في جريدة « التيمس » اللندنية وفي عددها الصادر في ٢٤ كانون الثاني عام ١٩٤٧ ما ترجمته بالحرف الواحد :

« لقد كان مشترطاً في المفاوضات التي دارت بين الولايات المتحدة الاميركية وبين بريطانيا العظمى أن تتخ بريطانيا أميركا مركز التجارة الممتاز في الامبراطورية البريطانية ، وهذه الشروط لا تشكل خطراً شديداً على مصالحنا فيما لو انتهت المفاوضات وفق ما ننتهي ونريد . وعلى حكومة العمال ان لا تغريها اكمان الذهب و مليارات الدولارات على التنازل عن مركز بريطانيا التجاري في الامبراطورية ».

ويستطرد اللورد « ولتون » قائلاً :

« اننا نؤمن بضرورة اجراء تعديلات اساسية على موقفنا السابق في التجارة الدولية ، ولكن اليوم الذي نتنازل فيه عن امتيازاتنا التجارية داخل بلادنا وامبراطوريتنا سيكون اسوأ يوم يمر في حياتنا الاقتصادية والسياسية . اننا إذا سمحنا لآلية حكومة ، منها كانت صداقتها لنا ، بان تتملي علينا شروطها وتحدد لنا السياسة الاقتصادية التي يجب ان تتبعها ، فعندئذ تكون قد وقعنا فريسة سهلة لاصعب ازمة مادية و معنوية شهدتها تاريخنا القديم والحديث ».

ولكن تحذيرات اللوره ولتون، ودموع المستر تشرشل، ونعيض المستر اميري وغيرهم من الشخصيات البريطانية لم تبدل او تغير شيئاً في فحوى قانون المنافسة الذي يحكم النظام الرأسالي، ويحول العالم الرأسالي كله الى احتكار واحد، إذ ان بريطانيا وحكومة العمال وقعت على اتفاقيات مشروع مارشال ، هذه الاتفاقيات

التي جعلت الاقتصاد الأوروبي ذيلاً للاقتصاد الأميركي وتابعاً له ، فلقد ورد في الفقرة الأولى من المادة الخامسة من الاتفاق الموقع بين الولايات المتحدة الأميركيّة وبريطانيا بوجب مشروع مارشال ما ترجمته بالحرف الواحد :

« على حكومة المملكة المتحدة (بريطانيا) ان تسهل نقل المواد الأولية وغيرها الى الولايات المتحدة الأميركيّة ، وخاصة تلك المواد المنتجة في المملكة المتحدة والتي قد ترغب الحكومة الأميركيّة في استيرادها ، وعلى حكومة المملكة المتحدة أن تقبل شروطاً معقولة للبيع والتبادل وإلى ما غير ذلك ».

ولكي تسيطر الرأسالية الأميركيّة على الاقتصاد البريطاني سيطرة كاملة وتجهه وفق مصالحها ورغباتها نصت الفقرة الثانية من المادة ذاتها على ما يلي :

« على حكومة المملكة المتحدة ان تتخذ الاجراءات والتدابير لتنفيذ احكام الفقرة الأولى من المادة الخامسة فتنمي انتاجها من مواد الخام المطلوبة وتسهل نقلها الى الولايات المتحدة الأميركيّة ، وعلى المملكة المتحدة ان تدخل حالاً وحينما تطلب حكومة الولايات المتحدة منها ذلك في مفاوضات لاتخاذ الاجراءات الازمة لتنفيذ احكام هذه الفقرة ».

وسررت المادة السادسة في فقرتها ان المملكة المتحدة تعفي بريطانيا العظمى وويلز الشماليّة .

وتنص الفقرة الأولى من المادة السابعة على ان هذه الاتفاقية يسري مفعولها في البلدان التالية :

« عدن ، بهاما ، قبرص ، جزائر فولك لاند ، جامييكا ، جبل طارق ، الساحل الذهبي ، هونكونغ ، كينيا ، مالطا ، مورتيرز ، نجيريا ، سانت هيلانة ، سيشل ، سيراليون ، سنغافورة ، تنزانيكا ، اوغندا ، زنجبار ، جزر وندورن وبريتانيا . وباختصار يسري مفعول هذه الاتفاقية في جميع ارجاء الامبراطورية البريطانية .

ما ورد يتضح لنا بخلاف السبب الجوهري الذي يجعل الدول الرأسمالية

الغربي تتكتل في معسكر واحد ، فقانون المنافسة الذي يلغى المنافسة في النظام الرأسمالي ويبطل مفعولهـا عن طريق الاحتكار قد ادى الى صيغة الاقتصاد الغربي في كل مشروعاته جزءاً من الاحتكار الاميركي ، فالولايات المتحدة اليوم هي الدولة الرأسمالية الكبرى في العالم . أما الرأساليات الغربية فهي توابع تدور في فلكها . منها تستمد النور ومنها تستمد الحياة . وبذلك تحقق السيد « وتش » أمين صندوق شركة ستاندارد اوويل ما أراده حين قال في خطاب له عام ١٩٤٦ :

« اننا بوصفنا اكثـر الدول انتاجاً ومالـاً وصناعة يلزم أن نخـزم امرـنا ونتحمل المسـؤولية التي يلقـيـها عـلـى عـاتـقـنـا كـونـنـاـ غـلـبـيـةـ الاسـهـمـ فيـ هـذـهـ الشـرـكـةـ التـيـ يـسـمـونـهـاـ العـالـمـ ».
إن السيد « وتش » لو استبدل كلمة العالم بكلمة الدول الرأسمالية لأصاب كيد الحقيقة !

وهـنـاكـ سـبـبـ آخرـ مـكـنـ الـاحـتكـارـ الرـأـسـالـيـ الـأـمـيرـكـيـ مـنـ التـهـامـ الرـأـسـالـيـاتـ الـأـوـرـوبـيـةـ ، وـهـذـاـ السـبـبـ هوـ وـعيـ الشـعـوبـ فيـ المـسـتـعـمـرـاتـ وـمـنـاطـقـ التـنـفـوذـ الغـرـبـيـ فـلـقـدـ شـاهـدـنـاـ الثـورـاتـ التـحرـرـيـةـ تـنـدـلـعـ عـقـبـ الـحـربـ الـعـالـمـيـةـ الـآـخـيـرـةـ فـيـ الـكـثـيـرـ مـنـ المـسـتـعـمـرـاتـ : فـيـ اـنـدـونـيـسـيـاـ هـبـ الشـعـبـ اـنـدـونـيـسـيـ يـطـالـبـ بـجـريـاتـ وـأـمـتـشـقـ السـلاـحـ ضـدـ الـمـسـتـعـمـرـينـ الـهـولـانـديـنـ ، وـفـيـ اـهـنـدـ الصـيـنـيـةـ اـنـدـلـعـتـ نـيـرانـ حـربـ تـحرـرـيـةـ ضـدـ الـاستـعـمـارـ الـبـرـيطـانـيـ . وـفـيـ الجـزاـئـرـ خـاصـاـ إـخـوانـنـاـ طـوـالـ سـبـعـ سـنـوـاتـ صـرـاعـاـ دـامـياـ ضـدـ الـمـسـتـعـمـرـينـ الـفـرـنـسـيـنـ ، وـفـيـ مـصـرـ وـالـعـراـقـ قـامـ نـظـامـ ثـورـيـ اـنـهـيـ عـهـدـ الـاستـعـمـارـ الـبـرـيطـانـيـ .

كلـ هـذـهـ الـحـركـاتـ التـحرـرـيـةـ قـامـتـ وـالـدـوـلـ الرـأـسـالـيـةـ الـاستـعـمـارـيـةـ تـجـتـازـ اـزـمـةـ خـانـقـةـ دـاخـلـ بـلـادـهـاـ ، لـذـلـكـ لـمـ يـكـنـ اـمـامـ هـذـهـ الدـوـلـ لـلـقـضـاءـ عـلـىـ الـحـركـاتـ التـحرـرـيـةـ فيـ الـمـسـتـعـمـرـاتـ إـلـاـ انـ تـسـعـيـنـ بـمـوـارـدـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ وـاـمـكـاـنـاتـهـاـ ، وـكـلـنـاـ يـذـكـرـ اـنـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ كـانـتـ تـسـهـمـ بـقـسـطـ وـافـرـ فيـ تـحـمـلـ نـفـقـاتـ الـحـربـ الـاسـتـعـمـارـيـةـ فيـ اـهـنـدـ الصـيـنـيـةـ ، كـاـوـاـنـ فـرـنـسـاـ قـاتـلـتـ إـخـوانـنـاـ فيـ الجـزاـئـرـ

بأسلحة حلف الاطلنطي التي هي في الاصل أسلحة اميركية .

لقد أدركت الرأسمالية الاميركية عقب الحرب العالمية الثانية أن الرأسمالية الاوروبية قد بلغت ذروة انحلالها ، وان الفرصة مؤاتية وملائمة جداً لامتصاصها والتهاجمها ، فوضع الرأسماليون الاميركيون زملاءهم الاوروبيين امام خيار مروع : فاما الانحلال والتلاشي والزوال ، واما الاندماج في الاحتكار الرأسمالي الاميركي ، وبالطبع اختيار الرأسماليون الاوروبيون اهون الشررين وهو الاندماج . وهكذا انهار قانون جوهري من قانون النظام الرأسمالي : قانون المنافسة والمراحمة ، وبذلك لم يعد من الممكن ابداً ان تتشعب الحروب من جديد بين الدول الرأسمالية التي أصبحت جزءاً من الاحتكار الرأسمالي الاميركي .

٣—ابقاء المراكز الاستراتيجية في ايد امينة

صرح الامiral زد فورد رئيس اركان هيئة القيادة الاميركية المشتركة بما يلي :

«ان أهمية الشرق الاوسط للعالم الحر بالغة الى حد لا تتحتمل المبالغة من التأثيرتين العسكرية والاقتصادية ، فهي تمثل او لا في موارده النفطية التي تسد اليوم معظم حاجات اوروبا ، وخسارة هذه الموارد خلقة بها ان تكون كارثة تنزل بالعالم «الحر» ، وهي تمثل ثانياً في ان مركزه الجغرافي يقع على خطوط المواصلات بين الغرب والشرق ، وثالثاً في هذه البقعة ليس لتسويقات دول حاجبة (Buffer State) .»

ما ورد يتضح أن الشرق الاوسط هو بثابة جسر يربط الشرق بالغرب ، وان كل طريق يمر من الغرب الى الشرق يجب ان يعبر على هذا الجسر . وفي الولايات

المتحدة الاميركية تقليد هو ان الشركات كثيرةً ما تقوم ببناء الجسور والمعابر وتقاضى رسمًا عن كل سيارة او قطار يمر من فوق الجسر الذي قامت ببنائه . وفي عالم يسوده النظام الرأسمالي يفضل الرأسماليون ان يكون المالك الجسر رجلاً ضعيفاً ، اذ انهم يستطيعون في مثل هذه الحالة ان يفرضوا ما يشاؤون عليه من شروط ، اما في حالة كون المالك الجسر رجلاً قوياً فعندئذ تقلب الآية اذ يفرض القوي على المستعمررين شروطه .

الاشتراكية

ما هي الاشتراكية - رواد الاشتراكية - الاشتراكية في المجتمع القومي

١ — مدخل تاريخي

كان العالم الفرنسي «ريبود» اول من استعمل كلمة «الاشتراكية»، وذلك حيناً وصف مذهبي «سان سيمون» و«فوربيه». كما وان بريطانيا لم تعرف هذه الكلمة حق عام ١٨٣٦، وذلك عندما اطلقت نعمت الاشتراكية على منهاج «روبرت أون Robert Uvn» لادارة مؤسسة «نيو لامارك» الصناعية، هذا المنهاج الذي بدأ «أون» في تطبيقه في اول كانون الثاني عام ١٨٠٠. ويقول العالم الفرنسي «تو كفيل» ان جميع المبادئ الاشتراكية الحديثة قد نص عليها في كتاب «شريعة الطبيعة» الذي وضعه «موريللي» عام ١٨٥٥ وقد جاء في قول «تو كفيل» ما يلي :

«ترون في ذلك الكتاب (شريعة الطبيعة لموريللي) — فضلاً عن جميع القواعد عن سطوة الحكومة وحقوقها الواسعة — كثيراً من النظريات السياسية التي افلقت بالفرنسا في هذه الأيام، والتي نظن اننا ادركتنا ببصرنا مولدها وهي : الاشتراك في الأموال وحق العدل والمساواة المطلقة وقسوة الاشياء على نعط واحد، ونظام دقيق في حركات الافراد وسكنائهم، وقد جاء في المادة الاولى منه :

«ان كل ما هو موجود في المجتمع ليس ملكاً لأحد» ،

وجاء في المادة الثانية :

«ان قوت كل فرد ولو ازمه وقيمة عمله من بيت المال»

وجاء فيه ايضاً :

« ان تدخل كل المنتجات في المستودعات العامة لتوزع على افراد الامة
قضاء حاجاتهم »

وجاء فيه ايضاً :

« ان يؤخذ الأولاد في السنة الخامسة من والديهم، ويربوا على نفقة الحكومة
جريدة عامة ذات نسق واحد »

ولا شك ان القارئ يعلم ايضاً ان كارل ماركس كان يرغب في ان يُسمى
مذهبة الاشتراكية ، غير انه وجد ان الاشتراكية تطاق على مذهبي « سان
سيمون » و « فورييه » لذلك سمى الماركسيّة بالشيوعية تمييزاً لها عن « السان
سيمونية » والفورية ، أضف الى ذلك ان الماركسيين يسمون الشيوعية
باشتراكية العافية، وينعون كل اشتراكية ما بعد الماركسيّة باشتراكية الوهبية.

ب — رواد الاشتراكية :

بدأت الدعوة الى الاشتراكية في القرن السابع عشر ، فعقب ان اعدم الملك
جيمس الاول ملك بريطانيا وارتفع كرومويل الى الحكم ، قام حركة في
بريطانيا تطالب لا بتحويل ميزان القوة من الملك الى الرجل العادي فحسب بل
والى العامل السليم من الملكية ايضاً، وقام « جيرارد نيستاني » زعيم « الحفارين »
بنشر دعوته القائلة بأن الملكية كانت قبل الفزو النورماندي لبريطانيا ملكية
مشاعية ، واخذ « نيستاني » يطالب « كرومويل » بالغاء الملكية الخاصة ، وجعلها
ملكية مشاعية ، وقد كان نيستاني يقول :

« بما ان كل فرد يعمل من اجل تنمية ما تملك الجماعة ، لهذا يتمنى ان يكون
لكل فرد الحرية في استعمال أية سلعة في المستودع العام من اجل استمتاعه ومعاشه

المربي، دون ما حاجة الى شراء او بيع، وبدون أي قيد من جانب أي شخص». كما وانه يتوجب علينا الا ننسى دور روسو كرائد من رواد الاشتراكية ، فلقد كان روسو ينادي جهاراً بان الملكية الخاصة سرقة مخضة ، وانه لم يكن هناك لملكية الخاصة وجود في حالة الطبيعة .

وعقب سقوط روبسيير واعدامه وتولي البرجوازية الفرنسية مقاليد الحكم قام « اميل فرنسوا بابوف » الفوضوي بالاتفاق و « فوشيه » الانتمازي المعروف ، بتدبير مؤامرة تستهدف قلب نظام حكم الديركتوار وإقامة مجتمع شيوعي ، غير انه سرعان مااكتشف أمر « بابوف » واعدم وهو لما يتجاوز السابعة والثلاثين من عمره بعد . وكان اميل فرنسوا بابوف (١٧٦٠ - ١٧٩٧) يقول بان الطبيعة قد وهبت جميع الناس حقوقاً متساوية في التمتع بكافة الطبيات ، وانه يتوجب على الحكومة ان تعمد الى تأمين جميع المؤسسات الكبرى ، ومن ثم ان تعمل على تأمين الثروات الخاصة وذلك باستصدارها قانوناً يحرم الميراث ، كما كان يطالب الحكومة بان تتولى إدارة عمليات الانتاج والتوزيع ، وعليها ايضاً ان تحرم كل منهج ثقافي او تربوي يتعارض وهذا النظام الذي كان يدعو اليه « بابوف ». اما المفداة والكساء فيجب ان يكونا واحداً للجميع فلا استثناء الا لدواعي اختلاف الجنس (Sex) والسن ، واخيراً كان « بابوف » يطالب الحكومة بان تأخذ جميع الاطفال من أهليتهم لتربيتهم وفق اساليب المجتمع الجديد .

وجاء عقب « بابوف » « ايتين كابت » الذي نشر قصة تدعى الى تطبيق المذهب الذي نادى به بابوف واسمي هذه القصة « الرحلة الى ايكاريا » .

يقول « ايتين كابت » إن « ايكاريا » كانت بلداً تسودها ديككتاتورية فنية – Technical Dictatorship – تعتمد التنسيق والانسجام والتتجانس في كل عمل من اعمالها . وكانت شوارعها مستقيمة ومنازلها عمارات تتالف كل عماره من خمسة عشر بيتاً متشابهة تماماً، ويحتوي كل بيت على احدث المعدات الصحفية .

و كانت سقوفها من زجاج و تستعمل الآت التقاط الغبار لكتنس الشوارع، وكانت الدولة هي المالكة لكل شيء في « ايكاريا »، وهي التي تقوم بتوزيع المنتجات بالتساوي بين المواطنين. وكان الناس يرتدون زيًّا واحداً، وان كان يسمح للمرء باختيار اللون الذي يوافق ذوقه . اما الصحف فلم يكن من المسموح بإصدارها ، وكانت الكتب جميعها تخضع لرقابة الحكومة قبل نشرها . وبلغ إيمان « كابيت » بهذه النظرية حدًّا جعله يهاجر الى الولايات المتحدة الأمريكية و يبتاع قطعة ارض في ولاية « تكساس » حيث انشأ عليها مستعمرة يسودها نظام « ايكاريا ». ولكن ، ونتيجة للحاجة الصفراء التي تقشت في تكساس ، انتقل « كابيت » الى « نافو » بولاية « الينوي » ، وانشأ مستعمرة بلغ عدد سكانها الفاً و خمسينية من الأفراد، غير ان مثالية « كابيت » سرعان ما قضت على تلك المستعمرة .

ومن ثم جاء « سان سيمون » (١٧٦٠ - ١٨٢٥) فرأى ان تقسيم المجتمع الذي اعقب عهد الاقطاع، وبدا متجلقاً في بداية النزعة التجارية ، كان تقسيماً ضاراً ، لذلك كان يطالب رجال العلم بادارة الصناعة بكرم وحكمة لصالح الجميع . وكان « سان سيمون » يرى ان الانسان يحتاج في ظل النظام الجديد الذي دعا اليه ، الى سلطة روحية تقوم بالدور ذاته الذي كانت تقوم به الكنيسة في عهد الاقطاع . اما القواعد التي يرتکز إليها نظام سان سيمون الجديد فهي : العلم والصناعة . وكان سان سيمون يقول بأنه لا يكفي ان نقضي على القديم ، بل يتوجب ان تتبع علينا هذا بامجاد منهج افضل من المنهاج الفردي المتميز بالفوضى ، فالمملكة الفردية المركزة او المجمعة هي وسيلة للاستغلال ، والاستغلال هو سبب الفقر والفاقة .

وكان « سان سيمون » يعتقد ان مثل هذا النظام الذي يدعوا اليه سيؤدي بالتالي الى قيام الملكية الاجتماعية العامة بدلاً من الملكية الفردية الخاصة ، وكان يرى بأن الملكية الخاصة ستبقى محصورة في ادوات الاستهلاك ، اما الأجور فيقتول تحديدها موظفو الدولة حيث تجيء متناسبة والخدمات التي يؤدinya الفرد.

وفي ظل نظام «سان سيمون» لا مكان للكسالى الخاملين من اغنياء او فقراء .

ما ورد يتضح ان نظام سانت سيمون كان مزيجاً بين الاقتصاد والآداب (Literature) وكان مسيحيًا مثالياً في جوهره ، يعتمد الامانى والنزعات الانسانية دون المخائق الواقع المادى للفرد ، لذلك فشلت المحاولة التي قامت بها جماعة من الناس لتطبيق مذهب «سان سيمون» وكانت هذه الجماعة تعيش عيشة اشتراكية . وقد كان «لأوغست كونت» صاحب مذهب الفلسفة الوضعية فضل كبير في تهذيب «السان سيمونية» .

وتتجلى عبقرية «سان سيمون» في أنه كان من رواد الاشتراكية الاوائل الذين ادركوا ما للعنصر الاقتصادي من اهمية في سير التاريخ وتطور المجتمع . فلقد قرر سان سيمون ان السياسة ليست سوى علم الانتاج ، وتنبأ بأن الاقتصاد سيتفوق عليها وبأن السياسة ستندمج فيه (الاقتصاد) .

وبذلك يكون سان سيمون اول من رأى ان الحكومة ستتحول من كونها إدارة لإدارة البشر إلى صيروتها إدارة لإدارة الانتاج ، وهذا ما معناه على حد تعبير «أنكلز» القضاء قضاءً مبرراً على الدولة .

كما وأن من لمحات عبقرية «سان سيمون» تقريره عام ١٨٠٢ ان الثورة الفرنسية لم تكن سوى صراع بين نبلاء القطاع من جهة ، والبرجوازية والطبقات غير المالكة من جهة أخرى ، أضف الى ذلك ايقانه المطلق بان نظامه لن يأتي بنتائج إلا في حالة قيام وحدة سياسية اوروبية ، وقيام برلمان واحد لأوروبا يتبع للعقلاء والمستنيرين تولي مقايد الحكم فيها . لذلك قام بالجاهزة بهذا الرأي غداة دخول الحلفاء باريس عام ١٨١٤ ورددته عقب هزيمة ثابليون في معركة واترلو عام ١٨١٥ اذ قال آنذاك بان الضمانة الوحيدة للسلم وتقديم اوروبا وازدهارها يستوجبان قيام حلف بين فرنسا وبريطانيا والمانيا . ويعلق «أنكلز» على دعوة سان سيمون هذه بقوله :

«لا شك ان في اعلان ذلك على مسامع الفرنسيين (الدعوة إلى تحالف بين

فرنسا وبريطانيا والمانيا) عام ١٨١٥، والمناداة جهراً بحلف مع منازعى النصر في معركة واترلو ، جرأة فادرة .

ويحيى شارل فورييه (١٧٧٢ - ١٨٣٧) ليوجه نقداً عنيفاً قاسياً الى المجتمع البرجوازي ، وليكشف عن فضائح هذا المجتمع ومخاذه ، وللينادي بتحويل النظام الى نظام افضل وذلك عن طريق ضرب الامثلة العملية ، لا عن طريق الوعظ والارشاد ، وليسخر من اولئك الفلاسفة الذين يقدمون الى الامم الوعود البراقة ، والكلمات المديدة ، والجمل الرنانة الطنانة ، ثم يبين بوضوح كيف ان الحقيقة والواقع يماقبان مثل تلك الوعود بكشف كذبها وخداعها ، واخيراً لينادي بتكون « الهيئات التعاونية » او « الكيمونة » (الجماعة المشاعبة) Phlanstery . وقد كان هم « فورييه » في « الكيمونة » يتركز على الاحتفاظ بالمنافع الميكانيكية في الصناعة الكبيرة والخبلولة دون انحدار العامل الى مرتبة الآلة ، اي صيرورة العامل آلة ، وكان لذلك يقول بان « الكيمونة » او « الفلانستري » يجب ان تتألف من ثلاثة عامل فقط يتعاونون على الانتاج . اما ادوات الانتاج فهي ملك مشترك بينهم ، كما ويمكن ان يكون الاستهلاك فردياً حسب اذواقهم . وكان « فورييه » يفترض ان التدبير الاقتصادي سيدفع بسكان « الفلانستري » إلى تناول طعامهم معاً . وكان يرى ان الآلة ستختفف من اعباء العمل ، غير انه يجب الا تحمل محل العامل . وعليه فان سكان « الفلانستري » سيكونون احراراً في ادخال الآلة او عدم إدخالها ، كما وان الزراعة ستنظم في « الفلانستري » تنظيماً يجعلها تتفق والصناعة ، ويكون البيع والشراء تعاونياً إلى مدى عظيم ، فتختلف الثروة وتوزع وفق مناهج اقتصادية لم يعرفها الناس من قبل . وسيؤدي شعور العامل بلذة العمل الى زيادة الانتاج زيادة تمكنه من اعتزال العمل في سن الثامنة والعشرين .

وكان « فورييه » يرى ان نظام « الفلانستري » سيفنى منسجماً متناسقاً ، لأن الرجل الحر في نظر « فورييه » سيعمل كل ما هو معقول ومناسب . وبذلك تصبح « الفلانستري » على حد تعبير « فورييه » داراً للطبيعة البشرية

لا سجناً لها . واغرق « فورييه » في التفاؤل بمستقبل العالم الذي كان يراه على عل وشك الدخول في عصر ذهبي حيث تجر فيه الاسود العربات ، وتسحب المحيطان المراكب في البحار ، ويصبح ماء البحر صالحاً للشرب . وبلغ التفاؤل بفورييه حدّاً جعله يعلن انه يتوقع في بداية كل شهر قمرى ان يتقدم احد الاغنياء ليطرق بابه وليقدم اليه الاموال الازمة لتأسيس « الفلاسستري » التي خططها .

تقول نظرية « فورييه » في التاريخ ان المجتمع قد مر خلال تطوره في مراحل اربع هي : الوحشية والهمجية والقبلية والتمدنية . ويعني فورييه بالتمدنية المدنية البرجوازية ، ويبين بوضوح كيف ان « النظام » يدفع كل رفيدة مارسها المجتمع الهمجي من زيها السافج الى زي معقد ، كما يظهر ان المدنية تدور في حلقة مفرغة ضمن المتناقضات التي تولدها باستمرار ، وكيف ان الفقر على حد تعبير « فورييه » ينبع من التخمة ، واخيراً يبرهن على ان لكل حقبة تاريخية دوراً صاعداً يعقبه دور نازل .

قلت في بداية حديثي عن « فورييه » انه وجه نقداً عنيفاً قاسياً الى المجتمع البرجوازي ، وسبب ذلك يعود الى ان « فورييه » قد اذله الفساد والتديليس اللذان كافاً منتشرين في عالم التجارة ، فلقد عاقبه ابوه في صباه لانه اطلع احد الزبائن على الحقيقة فيما يختص باحدى السلع ، وزاد من نقمته على المجتمع البرجوازي حينما امره احد التجار بالقاء حمولة سفينة من الارز في البحر ، كان ذاك الناجر قد ابقاها زمناً على امل المضاربة بشمنها ففسدت .

ومن ثم جاء « لوبي بلان » (١٨١١ - ١٨٨٢) وكان اول من دعا العالم الى الاستيلاء على السلطة بغية تحقيق الاصلاحات الاجتماعية ، وخلق المجتمع الجديد . وعندما نشبت ثورة ١٨٤٧ اصبح « بلان » عضواً في الحكومة المؤقتة ، غير انه قاوم الثورة التي كانت تستهدف تأسيس « كومون باريس » وعندما تولى السلطة نابليون الثالث أبعد « لوبي بلان » عن باريس وبقي يعيش في المنفى حتى عام ١٨٧٠ حيث انتخب عضواً في الجمعية الوطنية .
وكان « بلان » يرى ان على الدولة ان تنشئ المصانع الاهلية التي تكفل

لكل فرد عملاً، وان تكون هذه الصناعات صناعات دائمة غير موقته ، وليس مجرد اجراء وقتي لمكافحة البطالة. وكان « بلان » يقول بان المنافسة المتميزة بالجودة والكفاية بين مثل هذه الصناعات ذات الملكية الجماعية وبين الصناعة الخاصة، كافية وبالتالي بالقضاء على المشروعات الخاصة . وينصح « بلان » بتأسيس اتحاد قومي للمشروعات العامة يديره ويشرف عليه العمال، وذلك لتلافي الخسارة التي قد تنزل باحد هذه المشروعات .

وكان « بلان » يؤمن بان البشر متفاوتون في الموهب ، وهو اول من نادى بالشعار الاشتراكي المشهور : « من كل حسب مقدرته، الى كل حسب حاجته ». ويحيى، بعد ذلك « بير جوزيف برودين » (١٨٠٩ - ١٨٥٦) ليشنها حلة شعواء على البرجوازية والملكية الخاصة ، وليطالب بالمساوة بين الجميع ، ولينادي بمقاومة الدولة ، ول يقول بان المجتمع المثالي هو اتحاد بين النظام والفوضى ، ول يقول انه لا طريق للفداء الملكية الخاصة الا بزوال الحكومة، ولينعت ملوك الاراضي باللصوص ، وليتهم اصحاب الاعمال بسرقة العمال ، ولينادي بان حق الفرد في الحصول على نتاج عمله كاملاً غير منقوص حق مقدس ، وانه يشكل الملكية الخاصة الطبيعية . والفرد حسب فلسفة برودين لا يمكن ان يصل الى حقه هذا الا بزوال الدولة التي تحمي اولئك الذين يسرقون الجماعة ، ويستغلون الآخرين . ويهذا يكون برودين اول من اشترع دستور الفوضوية ووضع مذهبها .

ومن الجدير بالذكر ان كارل ماركس قد شن حلة عنيفة على برودين في كتابه المعروف بـ « بؤس الفلسفة » « The Misery of Philosophy » وذلك ردآ منه على كتاب « برودين » فلسفة البؤس « The Philosophiy of Misery » وآخرأ يحيى « روبرت اوون » (Robert Own) (١٧٧١ - ١٨٥٨) الذي يعتبر ملهم الاشتراكية البريطانية الحالية واضع دستورها. وكان « اوون » يؤمن بان تحسين الحياة البشرية يتم بواسطة توفير بيئة افضل للعامل ، ويرى ان النظام التعاوني الذي يخلو من الرأسماليين هو وحده المتصل بالانسانية والرحمة ،

وأن الفقر ينشأ عن المنافسة بين الناس والآلة ، وأنه لا دواء للفقر إلا باستخدام وسائل الانتاج ولادارتها إدارة تعاونية في صالح الجماهير . ويرى « أون » أن هناك ثلاث عقبات تعترض كل إصلاح اجتماعي وهذه العقبات هي :

الملكية الفردية والدين وطريقة الزواج المتبعة . وكان « أون » أول من استن سنة تبادل المنتجات لقاء ورقات نقدية قيمتها التوحيدية ساعات العمل . وتجربة روبرت أون في « نيو لانارك » مشهورة ومعروفة وليس بحاجة إلى ذكر أو تفصيل .

وأخيراً لا آخرأ ، يطالعنا عام ١٨٤٧ بالبيان الشيوعي الذي وضعه ماركس وإنكلز ، هذا البيان الذي يحاول أن يرسم للطبقة العاملة خط سيرها ، ويحلل التاريخ والمجتمع ويضع لها فلسفة جديدة ، ويحدد للبروليتاريا واجباتها وأهدافها . وقبل أن أنهي بمحضها في رواد الاشتراكية يتوجب علي أن أشير إلى حركة اشتراكية فعالة عرفتها المجتمعات الاوروبية ، وكان لها اثر بارز فيها واعني بها ، الحركة النقابية .

ان النقابة هي حركة وسط بين الاشتراكية والفوضوية ، ومذهب النقابيين يقاوم ملكية الدولة (التأمين) ، وينادي بضرورة جعل كل صناعة ملكاً للعمال العاملين فيها ، وخاصة لاشرافهم وتوجيههم . وتقوم النقابات بانتخاب مجلس عام يتولى شؤون التنسيق بين مختلف الصناعات ، غير انه لا يتحقق لهذا المجلس التدخل في المسائل الداخلية للصناعة .

ج — في فشل رواد الاشتراكية

تعمدت فيما تقدم ان استعرض نظريات ومذاهب المفكرين الاشتراكيين البارزين والسابقين لكارل ماركس وفريدرريك إنكلز استعراضاً موجزاً ، غير

أني سعيت ان اقدم الى القارئ خلاصة الخلاصة لفلسفاتهم ومذاهبهم ،
 وذلك كله بغية التقرير ان الافكار الاشتراكية التي جاءت قبل الماركسية لم
 يكتب لها اي نجاح في الميدانين النظري والعملي ، ولم تلق آية استجابة من لدن
 الجماهير ، ولم تصبح عقائد جماهيرية ثورية واما النجاح الذي لاقاه « روبرت
 اون » في تجربته الممتهنة في مؤسسة « نيو لا بارك » فكان نجاحاً وقتياً وعلى نطاق
 ضيق ومحدود ، كما وان نظام « الفلانستري » الذي جاء به « فوربيه » لم يصادف
 غير الفشل في كل من القارتين الاوروبية والاميركية ، فما هو السر في ذلك ؟
 إنني اعتقاد ان سبب فشل تلك المذاهب الاشتراكية يعود اولاً واخيراً الى كونها
 مذاهب غير علمية ، اي مذاهب مثالية تفت باقرب الصلات الى الغيبية ، او
 بالأحرى تتبع من الغيبية ذاتها ، لذلك جاءت تلك المذاهب غارقة في الصوفية
 والخيال والتفاؤل . « فوربيه » الذي كان ينتظر من احد كبار الاغنياء في
 بداية كل شهر قمرى أن يقرع بابه وان يقدم له المال اللازم لتمويل « الفلانستري »
 وسان سيمون صاحب كتاب « المسيحية الجديدة » الذي كان يرى ضرورة قيام
 كنيسة جديدة تحمل محل الكنيسة القديمة في عهد الانقطاع ، وتقوم بالدور
 الذي كانت كنيسة الانقطاع تقوم به ، واضرائهم من المفكرين الاشتراكيين ،
 لم يكونوا ثوريين بل اصلاحيين . وهناك ، كما يعلم القارئ ولا شك ، كبير
 فرق بين الاصلاحي والثوري . فالاصلاحي يتوكى تبديل المظاهر والابقاء على
 الجوهر . اما الثوري فانما يسعى الى تبديل المظاهر والجوهر معاً ، لذلك لاقت
 دعوة « روبرت اون » في بداية الامر الاحترام والتجليل والتقدير من لدن
 المجتمع البرجوازي في بريطانيا ، غير ان « اون » عندما بدأ يسير على الطريق
 السوي وعندما بدأ ينادي بمبادئ الاشتراكية العلمية ، وعندما بدأ يكتب
 الصفات الثورية تنكر له البرجوازيون وتناسوه واهلوه .

لقد كانت البرجوازية آنذاك آخذة في النمو والتضخم والتحول الى طبقة
 رأسالية احتكارية استغلالية استعمارية . وكانت البروليتاريا آخذة في الازدياد

والنمو والتضخم المددي ، وكان الوعي الاجتماعي يزداد بين صفوف العمال وينتشر ، ولقد ادركت البرجوازية ان البروليتاريا في طريقها إلى الانفجار ، وان على البرجوازية الكبيرة اذا ما ارادت ان تحفظ بملكيات مؤسساتها وبالسيطرة على المجتمع اقتصاداً وسياسة ان ترفع من المستوى المعاشي للعمال ، فتزيد الاجور وتخفض ساعات العمل ، وتشجع المحرّكات التي ترمي الى الاصلاح لا الى الثورة ، وان تبقى كل حركة اشتراكية سجينه الفيبيه في مثاليلها وأخلاقها ، وبذلك تحول الاشتراكية من حيث هي حركة ثورية تستهدف قلب نظام الحكم قلباً كاملاً شاملاً بواسطة التطوير بطبقة اجتماعية والارتفاع بطبقة اجتماعية اخرى ، اقول وبذلك تحول الاشتراكية من حيث هي حركة ثورية الى صيرورتها حركة إصلاحية ، وهذا طبع علينا برنشتين Bernstein بنظرية جديدة هي النظرية المعروفة بالاشراكية المتطورة Evolution Socialism ، هذه الاشتراكية التي تتعارض وابسط مبادئ الجدلية إذ تقول بأنه ليس هناك من امل قريب في سقوط المجتمع البرجوازي وزوال الدولة البرجوازية ، ويؤكد برنشتين بان الرأسماليين لن يتناقص عددهم في الدولة الرأسمالية مما قوته مراكمهم ، بل على العكس من ذلك سيزيد ، ويقول بان نظام الاحتياط لن يسير بسرعة متعادلة في كل فرع من فروع الصناعة ، وينذهب الى حد المذيان بان خبرة الاشتراكية قد بدأت تدخل الرأسمالية ؟! وانه تبعاً لذلك يتوجب على الهيئات الاشتراكية الا تعمل كهيئات ثورية بل كهيئات محولة في المجتمع .

هذه هي خرافات برنشتين واساطيره ، وقد اثبتت تاريخ تطور تاريخ الاقتصاد السياسي في البلدان الرأسمالية خطأ جميع نظريات برنشتين واضرائه ، فالصناعات وحق المصارف في الولايات المتحدة مثلاً قد بلغت أعلى الدرجات من التمركز في الكارتيلات والشركات المتحدة ، كما وان عدد الرأسماليين في تناقص مستمر ومتزايد ، أضف الى ذلك ان الاشتراكية قد برهنت انها لا تستطيع ابداً ان تقوم بدور المحول في المجتمع الرأسمالي ، بل ان ما يقوم بمثل هذا الدور هو الفاشية ، وذلك عندما ترى الطبقة البرجوازية الكبيرة ان فقدان التوازن الطيفي

سيؤدي الى ثورة اشتراكية ترفع الى الحكم فاشستيين من عسكريين او غيرهم حيث يحاول هؤلاء ان يعيدوا هذا التوازن عن طريق العنف والاكراه او المصالحة والمحادنة .

كلنا يعلم ان الاشتراكية في نهاية مراحلها تتعارض تعارضاً تاماً ومبدأ الملكية الخاصة ، إذ ان الاشتراكية قامت لتنفيذ هذا المبدأ نقباً تاماً، وتستأصل جذوره من المجتمع استناداً جذرياً، ولنسع الأن ما يقوله «رمزي مكدونالد» زعيم حزب العمال الاشتراكي البريطاني السابق وزعيم «الدولية الثانية» وذلك في كتابه «الحركة الاشتراكية» وفي الصفحة ٨٩ منه :

«ان الفكرة الشائعة عن الاشتراكية بانها تطالب بالغاء الملكية الخاصة ، هي فكرة خاطئة لا تقل في خطأها عن الفكرة القائلة بان الاشتراكية والفوضوية شيء واحد».

ولنسع المتناقضات الطريفة في تحديد غايات الاشتراكية كما يراها «رمزي مكدونالد» إذ يقول في الصفحة ذاتها وفي الكتاب ذاته ما يلي :

«تبدي الاشتراكية استحسانها وتساعد في النهاية على استئصال تنازع الملكية الخاصة ، وتحقق المكانت المرغوب فيها ، وتكون نظرة الاشتراكية في الملكية الخاصة جزءاً من غايتها العامة في منع المصالح الخاصة التي تسلب الرفاه الاجتماعي او ما يتعارض وهذا الرفاه» .

هذا ما يقوله احد الزعماء البارزين جداً للاشتراكيين البريطانيين ، ومنه يفهم بوضوح ان الاشتراكية كما يراها رمزي مكدونالد لا تتورى ابداً القضاء على الرأسمالية والتنظيم الرأسالي لللاقتصاد ، وانما تتورى فرض نظام من المراقبة الدقيقة والمحصر (Containment) على الرأسمالية ، ومتى «مكدونالد» كمثل انسان يرى افني تسعي في بيته ، فبدلاً من ان يسحق رأس هذه الافني بكعب حذائه يمسك بها ويخلع اسنانها ثم يطلق سراحها من جديد وهو يقول : «ايتها الافني لقد خلعت انيابك وسأركك الان تعيشين في متزلي بين اهل

بيتي ، غير أنني سأعيد خلع أنيابك عندما تنمو من جديد .

هذه هي « الاشتراكية » التي انبثقت عن سان سيمون وفوربيه وبرنشتدين وروبرت أون وغيرهم من المثاليين ، وهي اشتراكية كما يرى القارئ ولا شك ، غير منطقية او عملية إذ أنها تعتمد على النوايا الطيبة لا الأفعال ، وتعتمد على التفاؤل لا المعالجة الجذرية للأمور ، ومثل هذه الاشتراكية لا بد أن تفشل ولا بد ان تنهار ، إذ أنها لا تستند إلى آية فلسفية ، ولا تقوم على أية أسس فلسفية جديدة ذات صفة ثابتة ولون ثابت . ولذلك لا يمكن أن ترتفع في صراعها إلى مستوى الرأسالية ، فالرسالية تؤمن بالواقع وتؤمن بالحقائق منها كانت مرة او باردة ، وتعامل وهذه الحقائق في كل نشاطاتها ، لذلك لن يكتب لأية حركة اشتراكية النصر على الاستبداد والاستعباد الرأساليين إلا إذا كانت تلك الحركة واقعية في نشاطاتها ، واقعية في فهمها للعنصري والأشياء والاحداث ، واقعية في فهمها للإنسان والمجتمع والدولة ، واقعية في تحديدها لدور الفرد والطبقة ، واقعية في تعاملها والطبيعة والكون الكبير . لذلك فان أعظم الاخطار التي تهدد الاشتراكية تتمثل في المثالية والأوهام الصوفية ، وفي تحول الاشتراكية من حيث هي حركة ثورية إلى صيورتها حركة إصلاحية ، ولتجنب هذه الاخطار على القادة الاشتراكيين ان يتمتعوا بالتفكير الثاقب والشجاعة والجرأة .

د — كيف ولماذا نشأت الاشتراكية ؟

قلت في مكان آخر من هذا الكتاب ان العالم يسير في جميع نشاطاته العلمية والسياسية والاقتصادية وفق مذهب الجدلية ، هذا المذهب الذي وضع له « هيغل » دستوره ، وشرع له قوانينه الثلاثة المعروفة ، ومن ثم جاء

ماركس ليثور على هيغل أو ليطرح على حد تعبير أنكلز قشرته المثالية، ويأخذ نواله العلية، لذلك ووفق هذه القوانين الجدلية ولدت الحركة الاشتراكية وتكونت داخل رحم الرأسالية.

فعقب ان دخلت الآلة ميدان الانتاج، وغدت عنصراً جوهرياً ووسيلة جوهرية او بالاحرى الوسيلة الجوهرية الوحيدة للانتاج اخذت البورجوازية تلفز قفزآ في سلم الرأسالية وسلم السلطة، ووجهت ضربات مميتة وقائلة للاقطاع فكانت حركات الاصلاح الديني التي قام بها جون هُنْ، وكلفن ومارتن لوثر، وكانت الثورة البريطانية واعدام جيمس الاول، وتولي كرومويل مقايد الحكم، وكانت الثورة الفرنسية وكان القضاء النهائي على الاقطاع، وكان الاتحاد الالماني الذي حققه بسمارك، وكانت الوحدة الايطالية وكان .. الخ ..

غير ان هذه الانتصارات الساحقة في الميدان السياسي لم تبدل الحقيقة، حقيقة جوهر الرأسالية كنظام اقتصادي وسياسي، ولم تلغ المناقضات التي تكتنف صميم النظام الرأسالي، فالرأسالية التي خلقت الصناعات الضخمة وأوجدت المشروعات ذات الطاقات الانتاجية الهائلة، والتي اجتاحت بجيوبها مختلف البلدان في افريقيا وآسيا، وتحولت معظم الاقطاع في هاتين القارتين إلى مستعمرات تتم صناعتها بالاسواق والمواد الاولية، خلقت ايضاً العدو اللدود الذي سيقضي عليها، خلقت الجماهير الراغبة في التحرر والحياة الكريمة، فلقد أدت الثورة الصناعية في اوروبا، وأدى توسيع المشروعات الصناعية وتضخمها إلى نشوء طبقة جديدة في المدن هي طبقة «الاجراء»، طبقة العمال، وكان يرافق ازدياد المشروعات الصناعية، كما قلت في موضع آخر من هذا الكتاب، ازدياد في جيوب العمال. وكان الدستور الذي ينظم علاقات العمال بالرأسماليين يتلوى تحقيق اكبر قدر من الربح، وهذا الامر لن يتحقق إلا على حساب العمال وعلى حساب مستواهم المعاشي، لذلك لم يكن من بد للرأسمالية إلا ان

تليجاً إلى الاستغلال ، والاستغلال البشع بالذات .

وكان هذا الاستغلال يتمثل في القاعدة القائلة : اقل قدر ممكن من الاجور ، واكثر قدر ممكن من الساعات العملية الانتاجية . ولما كانت الحياة في جوهرها حركة متحركة تقول بأن لكل فعل رد فعل ، وان الطاعة حدوداً وللصبر حدوداً أيضاً ، لذلك ووفق القانون الثالث من قوانين الجدلية وهو قانون «نفي النفي» ، كان لا بد للعمال ان يشعروا بالظلم الذي تنزل بهم ، ويروا الحيف البالغ الذي يلحقه الرأسماليون بعاصلهم ، فيستيقظوا ويحسوا اهميتهم التاريخية كطبقة ثورية ، طبقة تولف الاكثريه الساحقة من الامة والامم ، لذلك جاءت الاشتراكية بثابة صيحة وعمل يدعوا إلى إنجازه المضطهدون المستغلون والمعديون في الأرض .

هـ - ما هي الاشتراكية ؟

يعرف الاشتراكي البريطاني بروراند رسل الاشتراكية بما يلي :

« الاشتراكية هي اشتراك المجتمع في ملكية الارض ملكية اشتراكية ، وفي رأس المال في ظل نظام حكم ديموقراطي ، ويترتب على هذه الاشتراكية توجيه الانتاج توجيهاً يجعله انتاجاً للاستهلاك لا للربح ، ويترتب على هذه الاشتراكية توزيع الانتاج على الجميع ، وإذا بقي ثمة من تباين او اختلاف في الخلوظ فيجب أن تبرره المصلحة العامة . »

وهناك تعريف آخر للاشتراكية يتعارض في بعض وجوهه وتعريف «بروراند رسل» ، الآسف الذكر ، ويتبين هذا التعريف الاشتراكيون المتأرون بعض الشيء باللادية الديالكتيكية ، ويقول هذا التعريف ما يلي :

ـ الاشتراكية هي مظهر من مظاهر المجتمع ، قواعده الاساسية هي :

- ١ - ملكية وسائل الانتاج ملكية اجتماعية اشتراكية .
- ٢ - إدارة هذه الوسائل واستخدامها ديمقراطياً .
- ٣ - توجيه الانتاج توجيهاً يتفق وحاجات البشر .

ويقول هؤلاء بأن إيجاد مثل هذا المجتمع مرهون بالفأءة الملكية الفردية والملكية القومية ، او بمعنى آخر ان زوال السيادة القومية هو الشرط الفروري لتحقيق الاشتراكية . كما يقولون بان إطلاق الصفة الاجتماعية على الملكية الاشتراكية ، يعني أن هذه الملكية قد خدمت ملكية في خدمة الجماعة لا في خدمة الدولة بغية تدعيم سيادتها القومية ونشر نفوذها السياسي والمذهبي .

ما ورد يتضح أن جسم الاشتراكيين ، وطبعاً ما عدا الاشتراكيين البريطانيين ، متفقون على إلغاء الملكية الخاصة ، وعلى توجيه المشروعات والمؤسسات توجيهاً يتوكى سد حاجات البشر لا الربح .

إذن فهل يتوجب على الاشتراكيين ، او المؤمنين بالاشتراكية ، ان يقدموا في اول خطوة يخطونها في ميدان النشاط السياسي على إلغاء الملكية الخاصة ؟

إن من ابرز صفات الاشتراكية هي قدرتها على « التأقلم » والمجتمع ، وكلنا يعرف ان المجتمعات البشرية على ظهر هذا الكوكب قد بلغت اليوم مراحل متفاوتة في التقدم والرقي ، وان لحكل مجتمع من هذه المجتمعات ظروفه الاقتصادية والاجتماعية الخاصة به ، لذلك فان وسائل تحقق الاشتراكية في مجتمع ما تحددها حسب منطوق الفلسفة الديالكتيكية الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي تسود ذاك المجتمع . فقد ينجح مجتمع معين في طريقه الى الاشتراكية نجاحاً مغايراً ومخالفاً تماماً للنجاح الذي ينهجه مجتمع آخر ، غير ان كلاً من المجتمعين المذكورين يسلكان الطريق الصحيح

إلى الاشتراكية ، لذلك فالنفاذ الملكية الخاصة التي هي المهد الأساسي للاشتراكية ، واستبدالها بالملكية الاجتماعية الاشتراكية ، هي المهد النهائي للحركة الاشتراكية الواقعية ، وليس المهد الاولى المباشر . فقد يضطر القائمون على توجيه المجتمع في بلد ما إلى تشجيع البرجوازية في ذلك البلد ، وحمايتها ورعايتها مؤساتها وإئحة كل الظروف التي تحكمها من النمو والازدهار . وهذا العمل ، كما يبدو ، يشكل انحرافاً كلياً عن النهج الاشتراكي ، غير أنه يشكل في الواقع خطوة واسعة نحو الاشتراكية ، وهذه الخطوة تمثل في زيادة فعالية رأس المال القومي زيادة لا يمكن أن تتحقق إلا عن هذا السبيل ، سهل حماية البرجوازية الناشئة التي تقللها وتفرضها ظروف اجتماعية معينة من سياسية أو تقنية .

غير أن قيام مجتمع ما بائحة مثل هذه الفرصة للبرجوازية يجب ألا يتم إلا في حالة واحدة ، وهذه الحالة هي أن يكون الاشتراكيون الواقعيون المثلوون مظهراً وجوهراً للجهابذير في دست الحكم ، وبأيديهم مقاييس السلطة والأمور ، فالاشتراكيون آنذاك يسمحون لرأس المال بالنمو والازدهار ، غير أنهم يمنعون الرأسماليين من السيطرة والحكم وإدارة المجتمع إدارة تتوجه لا سد حاجات البشر .

ما ورد يتضح انه ليست للاشتراكية في مراحلها الابتدائية قوانين حديدية تطبق في كل بلد وفي كل قطر دون مراعاة لظروف ذاك البلد او القطر ، بل ان الاشتراكية في مراحلها الاولى تتآقلم والمجتمع ، وتتأثر بظروفه ، وتسلك كل سبيل يؤدي إلى زيادة فعاليات رأس المال القومي ، شريطة أن تكون السلطة بأيدي الاشتراكيين بغية حماية المجتمع من الانحرافات الرأسمالية .

غير ان الاشتراكية في جميع البلدان ، وبغض النظر عما قد يكتنف هذه البلدان من تفاوت في التقدم الاقتصادي والاجتماعي ترى ان المرحلة الاولى في

الطريق الى الاشتراكية ، تتجز حالما تستولي الدولة على المرافق العامة ذات الامية الحيوية للشعب ، كالخطوط الحديدية ومحطات توليد الكهرباء وغيرها ، وتديرها إدارة إجتماعية اشتراكية ، كما وينتفق الاشتراكيون على ان الاجراء التمهيدي الذي يسبق هذه المرحلة يتمثل في القضاة قضاء نهائياً على الاقطاع ، وتدمير جميع مشتقاته الاقتصادية والاجتماعية ، وذلك لأن الاشتراكية الحديثة تبدأ فعاليتها ومفعولها حالما يخطو المجتمع من الاقطاع إلى اولى مراحل الرأسمالية .

وتسلك الاشتراكية نهجاً واحداً في جميع البلدان والأقطار والدول عندما تبلغ الاشتراكية في تلك الدول مرحلتها النهائية ، هذه المرحلة تمثل في تحقق طاقة واسعة من الانتاج تفي باحتياجات الأمة المتزايدة . آنذاك يقوم المجتمع بتنسيق الاقتصاد تنسيقاً عضوياً بحيث يتناصف الانتاج وحاجات المجتمع ، ويضمن التوزيع وفقاً لهذه الحاجات ، وتوضع موازنة دقيقة بين الانتاج واستهلاك الأسواق ، وترول الملكية الخاصة زواياً ، وتصبح الحكومة مجلس إدارة للمجتمع .

و — بين اقتصاد الدولة ورأسمالية الدولة

يخلط الكثيرون من الاشتراكيين بين اقتصاد الدولة ورأسمالية الدولة . ففي الدولة التي يسيطر عليها الاشتراكيون الواقعيون لا يقوم اقتصاد دولة ، بل إنما تقوم رأسمالية الدولة . فالحكومات التي تعمد إلى سياسة اقتصادية منهجية ، اي تعمل بنظرية إقتصاد الدولة ، ليست بحكومات إشتراكية ، بل إنما هي حكومات عرقها البرجوازية الكبيرة إلى سدة الحكم عندما تتأزم الأوضاع الاقتصادية فینتشر الكساد وقمع للبطالة وتتدحرج القدرة الشرائية

لدى الأكثريّة الساحقة من الأمة، وبذلك يختل التوازن الاجتماعي بين الطبقات الاجتماعيّة .

في مثل تلك الاحوال تصبح المشكلة بالنسبة للرأسمالية والرأسماليين مشكلة بقاء او لا بقاء ، وهنا تجند الأنظمة الرأسمالية كافة قواها وتتنازل عن بعض إمتيازاتها وبعض ارباحها وتخلي عن الكثير من حرياتها للدولة بغية تخطي الأزمة التي تعانيها ، فتسلم مقابليد امورها إلى ديككتاتورية فاشية بغية إخاذ نيران ثورة اجتماعية يكون العمال على وشك إشعالها ، ولذلك فإن اقتصاد الدولة لا يؤدي أبداً إلى ثورة اجتماعية ، بل إنما هو محاولة برجوازية لتحقق مثل هذه الثورة في المهد . اضف إلى ذلك ان اقتصاد الدولة يبقى المجتمع منقسمًا إلى طبقتين هما: طبقة العمال الأجراء ، وطبقة الرأسماليين المسؤولين ، وتمرر المهمة الأساسية لاقتصاد الدولة على تحقيق الأغراض الثلاثة الآتية :

الأول : إعادة تشغيل الآلات الإنتاج .

الثاني : فتح أسواق جديدة .

الثالث : إعادة التوازن بين طبقات المجتمع .

لذلك يتضح لنا تماماً ما ورد أعلاه ان مهمة المهد الرئيسي لاقتصاد الدولة هو إعادة الحياة للرأسمالية التي تكون قد دفعت بها المناقضات التي تكتنفها إلى الانحلال وشifer الماوية .

وهناك نقطة هامة في اقتصاد الدولة وهي ان اقتصاد الدولة كثيراً ما يكون لاجراء تمهيدياً لخوض غمار حرب استعمارية قاربة او عالمية ، وسبب ذلك ان اقتصاد الدولة الذي يستهدف فيما يستهدفه فتح أسواق جديدة ، بغية تشغيل الآلات ، وهذا ما يقتضيه اللجوء إلى الضغط الدبلوماسي فالتمهيد العسكري فالحرب .

ودليل على ذلك ما حدث في المانيا المحتلة وإيطاليا الفاشية ، فعندما تولى هتلر الحكم كانت المانيا تتخبط في ازمات اقتصادية عنيفة ألت بالمجتمع

الألماني اقتصاداً وسياسة بين براند الفوضى والانحلال ، وبلغت فيها نسبة العمال المتعطلين عن العمل نسبة لم تألفها طيلة تاريخها ، فساد الكساد وتفشت البطالة تقشياً ذريعاً ، واحتل التوازن الاجتماعي بين الطبقات ، واحست البرجوازية بأن أخطاراً محققة تحدق بها وتهدد وجودها ، فارتقت بالحزب النازي وبهتلر إلى الحكم ، وحالما تسلم هتلر مقاييس الأمور سارع إلى تحويل الاقتصاد الألماني من اقتصاد رأسالي إلى اقتصاد دولة ، فقام بشق للطرق الحربية ، وبدأ يعيد إنشاء الجيش الألماني ويعد مشاريع التسلح ، وهذا ما يعني إعادة الحياة إلى الصناعة ، ومن ثم اخذ ينهج مبدأ جديداً في التجارة الدولية هو مبدأ الضغط والتهديد حين إبرام الصفقات التجارية ، وقد حدث أن فرضت المانيا على تشيكوسلوفاكيا مثلاً شراء الاسبرين الألماني بفولاذ تشيكوسلوفاكي ، كما ظهر إلى الوجود مبدأ المجال الحيوي لالمانيا (Lebensraum) .

لقد ثبت تاريخياً ان الدول الرأسمالية تلجم إلى نظام اقتصاد الدولة عقب كل أزمة دورية تعتبر التنظم الرأسالي ، كما ثبت أيضاً ان اقتصاد الدولة يؤدي حتماً بالدول الرأسمالية إلى الحرب ، وسبب ذلك انه منها كانت قوة العقول والارادة والخزم التي تتضاع مناهج اقتصاد الدولة وتتفذها ، فإنه لا يمكن ابداً لها ان تقضي على المتناقضات التي يقوم عليها النظام الرأسالي ، ودليل على ذلك انه عقب الحرب العالمية الأولى ببعض سنوات لا تتجاوز العشر ، بدأت هذه طلائع الأزمة الدورية متجلية في افق الدول الرأسمالية ، وبلغت هذه الأزمة أشدتها عام ١٩٣٢ ، وأصبحت المجتمعات الأوروبية والأميركية في الدول الرأسمالية على وشك ان تنفجر، فارتقت البرجوازية الاميركية بفرنكlin روزفلت والحزب الديمقراطي إلى الحكم ، وسرعان ما عمد روزفلت إلى انتهاج سياسة الاقتصادية المعروفة بـ (New Deal) وهي سياسة تلامس سياسة اقتصاد الدولة او بالآخر تندمج فيها ، كما كانت العسكرية اليابانية التي فرضت هي بالتألي نظام اقتصاد الدولة تقوم آنذاك بحربها الاستعمارية في الصين ، وعقب ذلك بقليل قام موسوليني باجتياح الخبطة

واستعمرها ، ويلاحظ ان توقيت روزفلت مقاليد الحكم في اميركا كان تقريباً في وقت واحد وتولي هتلر زمام السلطة في المانيا ، وقامت الديكتاتوريات العسكرية والمدنية في البلقان .

وكان معظم الدول الاوروبية تدين بمنهب اقتصاد الدولة ، ولكن الى أين انتهى بالعالم المطاف اخيراً ، لقد انتهى اقتصاد الدولة بالعالم الى الحرب العالمية الثانية ، هذه الحرب التي عرفنا من ويلاتها وسمينا عن مآسيها الكثير .

اما فيما يتعلق ب موضوع إعادة التوازن الاجتماعي بين الطبقات ، فلا شك اننا جميعاً نذكر الطرق التي جأ إليها النازيون والفاشتيون والعسكريون اليابانيون لإعادة هذا التوازن المطلوب . فلم يكن امام هؤلاء جميعاً الا وسائل العنف والإكراه ، فامتلأت المعسكرات بالمعتقلين ، وشرد الاحرار وقيدت الحريات ، وغدا التفكير جريمة يعاقب عليها النظام العام بأشد العقوبات واقساها .

لذلك كله فاني أعجب كثيراً من امر او لثك الاشتراكيين الذين يعتبرون اقتصاد الدولة خطوة تقدمية بالنسبة للنظام الرأسمالي ، فاقتصاد الدولة في نظري هو الاجراء العنيف الرهيب الذي تلجمأ إليه البرجوازية ، عندما تلمس ان زمام الامور يكاد يفلت من ايديها ، وهي مع أنها تتنازل عن بعض امتيازاتها وبعض حرياتها في إدارة مشروعاتها ومؤسساتها ، غير أنها تتقاوم ثمن تنازلها هذا ، الارهاب والقسوة والعنف الذي تمارسه السلطة ضد المجتمع بيساره ، وضد قوى الطبيعة بالذات ، بغية تأمين اسباب البقاء لها .

ز — الاشتراكية في المجتمع القومي

ان المتتبع لتاريخ تطور الاقتصاد وانعكاسات هذا التطور على الاطر الحقوقية للدول ليشاهد ان البرجوازية الاوروبية قد اتخذت من القضية القومية ومن الدعوة اليها وسيلة الى هدم نظام الاقطاع الذي كان سائداً في الدول الاوروبية حتى بداية القرن الناسع عشر : فلقد غدت البرجوازية الالمانية والابطالية وغيرها من البرجوازيات الاوروبية كل حركة قومية تستهدف توحيد الاقاليم في دولة موحدة او متحدة . وسبب معارضتها البرجوازية الاوروبية مثل هذه الدعوات القومية المستهدفة الوحدة او الاتحاد ، جليٌ واضح . إذ انه عندما بلغت البرجوازية اشدتها ونمت صناعاتها واخذت تتدفق بالسلع والمنتجات بكثيات ضخمة وافرة ، وجدت ان لا سبيل امامها الى الحياة والازدهار الا عن طريق الفاء الحدود بين الاقاليم وتيسير حرية انتقال البضائع والأشخاص ورؤوس الاموال ، وذلك لا يمكن ان يتم الا بتوحيد مثل هذه الاقاليم في دولة موحدة او متحدة ، لذلك يعتبر المؤرخون ان اول خطوة عملية في طريق الاتحاد الالماني جاءت ممثلة في الاتحاد الجمركي (Zollverein) الذي عقدته الاقاليم الالمانية فيما بينها في بداية القرن الناسع عشر . ولا يخفى على القارئ ما لإنجاز الاتحاد الجمركي بين الاقاليم الالمانية من فوائد مادية تعود على البرجوازية الالمانية . اضف الى ذلك ان الرأسماليات الاوروبية المتقدمة (Advanced) كانت قد بدأت تتسع استعمارياً في القارات الاميركية والافريقية والآسيوية ، ونحن اذا ما دققنا في احداث التاريخ نجد أن الدول الاوروبية السباقه الى الاستعمار وانشاء المستعمرات كانت تلك التي حققت وحدتها القومية وتجسدتها في اطار حقوقى كاسبانيا والبرتغال وانكلترا ومن ثم فرنسا ، لذلك كانت البرجوازية الالمانية والابطالية تتلوى اما تحت سياط الطمع والرغبة الجامحة في الاستعمار ، وهي تشاهد امتياها

مزقة الاوصال يعيش كل جزء منها في اقلٍ له كيان الدولة في جوهره ومظاهره ، لذلك دعمت البرجوازية الالمانية والابطالية كل حركة سياسية تستهدف جمع الشمل في الدولة الموحدة او المتجمدة .. كما ان التاريخ ليظهر لنا بجلاء ووضوح ان العالم لم يعرف او يشهد للاستعمار الالماني او الابطالي اوراً الا عقب ان حققت هاتان الامتان وحدتهما القوميتين وجسدهما في اطارين حقيقيين .

وهنا قد يتساءل القارئ ما اذا كانت الحركة القومية المتوجهة لتحقيق الوحدة القومية وتجسيدها في اطار حقوقى تعتبر حركة رجعية ؟

انني اجيب انه من الخطأ الفاحش اعتبار مثل هذه الحركة حركة رجعية اذ انها حركة تقدمية تاريخية ، بكل ما الكلمة التقدمية من معنى ومفهوم ، وذلك لأن الحركة القومية عندما تستهدف تحقيق وحدة الأمة فاما تستهدف في الوقت ذاته ضرب نظام الاقطاع وتدمير مشتقاته .

لذلك فان الحركة القومية حركة تقدمية وثوروية ، اما ثورويتها فتتجلى في نضالها ضد نظام الاقطاع ، هذا النظام الذي يدعم التفرقة بين الأمة ويصنع من كل إقليم دولة مستقلة ذات سلطة ، ولنا في العالم العربي وفي دولة المتخلفة غير ذليل على ذلك ومثل .

وهنا قد يسأل القارئ عن طابع القومية العربية وجوهرها ، وعما إذا كانت القومية العربية ستبقى حركة تقدمية ثورية في المدى الطويل ؟

وعلى هذا السؤال اجيب بأنه ما لا شك فيه ان الحركة القومية العربية الحالية هي حركة تقدمية ثورية شكلاً وموضوعاً . ولقد شاهدنا كيف ان هذه الحركة قد ضربت الاقطاع في مصر والعراق وسوريا بقسوة وقوة وكيف دمرت كيانه ، وسحقت جميع مشتقاته ، وكيف ايقظت في الفرد الوعي الاجتماعي . وفي نظري ان يقظة الوعي الاجتماعي في الفرد اهم بكثير من يقظة الوعي القومي ، وذلك لأن الفرد حينما يعي ذاته اجتماعياً لا تفتح

في داخله فضائله كواطن ، بل إنما تفتح فيه فضائله كقومي يعيش في مجتمع قومي وآخرأً كانسات يعيش في مجتمع انساني يضم البشرية بأسرها لذلک فاني اقرر هنا ان الحركة القومية العربية هي في هذه المرحلة ، وفي مراحل تلي . حركة تقدمية ثورية لأنها تهدف الى تحقيق الأغراض الآتية :

- ا - التحرر من الاستعمار .
- ب - ضرب الأنظمة الإقطاعية في الأقاليم العربية .
- ج - توحيد الأقاليم العربية في دولة اتحادية فيدرالية .

وهنا قد يسأل القارئ مرة ثالثة عما اذا كانت الحركة القومية العربية ستتحول وبالتالي في أهدافها الى حركة برجوازية ، كما تحولت حركات القوميات الاوروبية الأخرى ؟ وعما اذا كانت الحركة القومية العربية ستنهج مستقبلاً وعقب تبلورها وتتجسدتها سياسة عدوانية استعمارية تتوجه الغزو والفتح وانشاء المستعمرات ؟

انني اجيب على هذين السؤالين قائلاً بأن الوعي الشعبي او بالاحرى الوعي الاجتماعي في الفرد العربي هو في طريقه الى الاكمال ، كما وان الظروف الدولية من ثقافية وسياسية ، واعود لاكرر ثقافية ، لن قسمح للبرجوازية العربية بتحويل الحركة القومية في صالحها واستغلالها استغلاً يكتمها من اجتناب المراوح وتكميس الثروات . فالفرد العربي قد استيقظ اجتماعياً ومن المستحيل قتويله مرة اخرى . اما على السؤال الثاني فأجيب ان الاستعمار قد اخذ في اعقاب الحرب العالمية يتهاوى وينهار في كل بلد وقطر . ففي آسيا تحررت الهند وسوريا الخ ، وفي افريقيا تحررت « غانا » ومصر . وهناك اقطار افريقية اخرى قد تحررت او هي في طريقها الى التحرر ، وهذا دليل على ان الاستعمار قد بلغ ذروة انحلاله ، وهو يلفظ اليوم انفاسه الاخيرة ، لذلک كله فطبيعة الظروف العالمية كلها تمنع وتحول دون اية محاولة جنونية ، قد تدفع بالحركة القومية

العربية الى العداون والاستعمار ..

وقد يسأل القارئ سؤالاً آخر ، عما اذا كان يتوجب على الأمة العربية ان تكرس كل نشاطاتها بغية اشعال الثورة العالمية وتحقيق اهداف هذه الثورة ؟

وعلى هذا السؤال أجيب ان كل حركة ثورية تستهدف ضرب الاستعمار وتدمير نظام الاقطاع وتحقيق وحدة الامة العربية في اتحاد فيدرالي هي جزء لا يتجزأ من الثورة العالمية ، وهي خطوة أساسية على الطريق الصحيح لتجسيد الدولة العالمية ، فكما في قبائل « الملاو الملاو » في افريقيا ضد الاستعمار والحركات التحررية في المستعمرات ، جميع هذه الامور هي معارك حيوية من معارك الثورة العالمية ، لذلك يجب على كل امة ان تكرس جهودها لتحقيق الاهداف الثورية الانفقة الذكر (التحرر من الاستعمار والاقطاع وتحقيق الوحدة القومية) في بلدها وان تجد العون اذا استطاعت اليه سبيلاً ، الى الشعوب الأخرى في المستعمرات والبلدان التي يسودها نظام اقطاعي او قبلى .

والآن اعود ثانية الى السؤال الذي انطلقت منه عما اذا كانت الاشتراكية قابلة للتحقق في مجتمع قومي ؟

انني اريد ان اقرر هنا ان القومية وتجسيدها في اطار حقوقى هو الدولة الاتحادية ، لا يعتبر ابداً المرحلة النهائية من مراحل جهاد الفرد الانسان ، بل انها مرحلة في طريق الانسان الى تحقيق الانسانية وتجسيدها في اطار حقوقى هو الدولة العالمية الاتحادية ، كما وانه لا يمكن ابداً للاشتراكية ان تتحقق قولاً وعلماً الا في ظل مجتمع الدولة العالمية وليس في ظل التعاون بين البشرية الموزعة الى امم في دول مستقلة . لذلك فان الحركات القومية عندما تشن حرباً لا هدادة فيها او لين ضد الاستعمار والاقطاع فاما تتونخى من وراء حربها هذه ، من حيث لا تدرك تحقيق الدولة العالمية .

ان العالم اليوم وعقب التطور الهائل الذي طرأ على اوضاعه الاقتصادية والاجتماعية قد غدا « عالماً صغيراً » ، وأصبحت مصالح كل امة متشابكة ومصالح الامم الاخرى ، على صورة لا يمكن ان تنقصها لها عروة او وشيعة ، وان اية ازمة قد تحدث في اي بلد من بلدان العالم تؤثر تأثيراً مباشراً وفعلاً على جميع بلدان العالم .

لذلك لم يبق امام الامم من وسيلة او سبيل ، لتدعم رفاه الفرد الانسان عن طريق الاشتراكية الا في اللجوء الى تحقيق الدولة العالمية بغية ايجاد هيئة فعالة تقوم بتنسيق الاقتصاد العالمي تنسيقاً يجنبه اولاً الأزمات ، ومن ثم يسوده مبدأ سد حاجات البشرية لا مبدأ الربح او حتى مبدأ الربح القومي ذي الطابع الاشتراكي .

كثنا نعلم ان العلم قد وضعنا اليوم على ابواب الكون الكبير ، نعم الكون الكبير في كل أنظمته الشمسية ، وفي كل انهر مجراته ، ولا سبيل للانسان للوصول الى هذا الكون الكبير الا في تضافر جهود الامم وقيام دولة عالمية تنسق هذه الجهود والإمكانات . لذلك كله فان الحركات القومية تستند اغراضها السياسية والاجتماعية حالما ينتهي عهد الاستعمار او بالاحرى حالما ينْهَى عهد الاستعمار وتدمير كل مشتقاته . أضعف الى ذلك ان منع الحروب ، والحروب كما نعلم قد اصبحت رهيبة لا يستطيع العقل البشري ان يقدر مدى الأضرار التي تلحقها بالانسانية ، لا يتم الا عن طريق الدولة العالمية ، هذه الدولة التي ستتجنب العالم الازمات الاقتصادية وستجسد بالتالي المجتمع الاشتراكي . لذلك كله اؤمن ايماناً مطلقاً وعميقاً بأنه لا يمكن للاشراكية ان تتحقق في مجتمع قومي ، وذلك لأن ظروف تحقق الاشتراكية تتحقق كاماً غير منقوص لا تخضع أبداً للدولة القومية في المجتمع القومي ، لأنها تخضع وتخضع من قبل جميع الأمم في جميع المجتمعات الموحدة المهدف في تحقيق الاشتراكية في ظل الدولة العالمية الاتحادية .

يقول البعض ان القومية هي آخر المراحل التي يمكن أن تبلغها الأمة

والانسانية معاً، وان الاشتراكية من الممكن تحقيقها في مجتمع قومي وتدعيمها عن طريق التعاون والأمم الأخرى، غير أن التاريخ قد علمنا ان التعاون المنشق عن الانسانية القومية لا يمكن ان يعم او يتدوم على المدى الطويل، فالتعاون يقوم على أساس التبادل المتكافئ المنافع، ومثل هذا التبادل من المستحيل تتحققه نظراً للتباین الواضح في توزيع الطبيعة لثرواتها ومواردها بين مختلف البلدان والأقطار.

فهناك كافعلم اقطار فقيرة وأخرى هائلة الثراء، غزيرة الموارد، لذلك فإن رفاه الانسانية على ظهر هذا الكوكب لا يمكن ان يتحقق عن طريق تعاون الامم بعضها مع بعض، بل عن طريق اندماج الامم بعضها في بعض وصيرورة الانسانية في كل امها وشعوبها عائلة واحدة متحدة موحدة جميع اعضائها متكاملون متضامون.

نحن نعلم أن أهم الاهداف الاشتراكية هو مكافحة الاستغلال، لذلك كان من ايسط البدئيات أن تناهض الاستعمار، إذ ان الاستعمار هو مركب يشع من الاستعباد والاستغلال، إنه الاستغلال في أبشع صوره، غير أننا إذا تمعنا في سلوك الأحزاب الاشتراكية الغربية من بريطانية وفرنسية وغيرها ودرستنا خطواتها في السياسة الدولية لوجدنا أن جميع هذه الأحزاب تعاضد الاستعمار وتعمل جاهدة لتدعم الانظمة الرجعية لا في العالم العربي فحسب بل في جميع اقطار العالم ايضاً، وهذه الأحزاب الاشتراكية الغربية لم تقم في الأصل إلا لحماية الرأسمالية. ولنسمع ما قاله الوزير الاشتراكي الفرنسي «سيناس» في مجلس الشيوخ الفرنسي وفي الجلسة المنعقدة في ۱۲ مارس اذار سنة ۱۹۲۷، لقد قال الوزير الاشتراكي «سيناس» ما ترجمته بالحرف الواحد :

«إن مهمة رب العمل لشيء عظيم، وفي الامكان ممارستها بنبل، فهل تظنون أنها السادة اتفى اريد القضاء على النظام الرأسمالي؟! كلا إنها

السادة ! إنني أعلم جيداً أن في قدرة هذا النظام أن يقوم بخدمة كبيرة خير قيام ، واعتقد أن من مصلحة الطبقات العاملة نفسها أن تلائم بينه وبين ضروريات الحياة الحديثة » .

كما وانتنا لا شك نذكر أن « غي موليه » الاشتراكي هو الذي شن حملة العدوان على مصر لدعم الاستعمار الفرنسي في الجزائر ، كما وانتنا نشهد موقف حزب العمال البريطاني من حركات التحرر في المستعمرات البريطانية في كل من افريقيا وجنوبي شرق آسيا والمستعمرات البريطانية الواقعة في المحيط الهادئ ، لذلك فإن الاشتراكية غير قابلة للتطبيق والتحقق من من الوجهة التحريرية الإنسانية في نطاق الدولة القومية ، إذ ان غريزة العدوان والاثارة والاقانة تبقى في نطاق الدولة القومية اللب والوجه والجوهر .

كما وأن هناك نقطة بارزة وحيوية أخرى ، وأعني بها انقسام السوق الدولية ، هذا الانقسام الناشيء عن سياسة انقسام العالم سياسياً إلى معاكسرين ، المعسكر الشيوعي والمعسكر الرأسمالي ، وسيكون لهذا الانقسام كما يدرك القاريء ولا شك ، نتائج وبيئة وخيمة الموابع على الاقتصاد العالمي ، وخاصة على البلدان الرأسمالية المتقدمة (Advanced) ومن ثم على البلدان المختلفة اقتصادياً كبلدان الشرق الأوسط ، لذلك فإن تحقق الاشتراكية تحققها كاملاً لا يمكن أن يتم إلا في حالة قيام سوق هولية موحدة ، وقيام السوق الدولية الموحدة مرهون بقيام الدولة العالمية .

و قبل أن أختتم بحثي في الاشتراكية أعود لأؤكد ان القومية وتوحيد الأمة في دولة إتحادية هي خطوة ثورية تقدمية في الطريق نحو الاشتراكية الواقعية . كما وأنني أعود لأؤكد ان حركة القومية العربية هي اليوم وستبقى في أيام قادمة حركة ثورية تقدمية حق تتحقق وحدة الأمة العربية ، وتتخذ شكلها الحقيقي في الولايات العربية المتحدة . أما شروط قيام الولايات العالمية المتحدة فهي تتلخص كما أرى فيما يلي :

- ا - قيام القوميات المتحررة المستقلة .
- ب - زوال الاستعمار بكل اشكاله من انتهازية واحتكارية .
- ج - زوال الانظمة الرجعية من قبلية واقطاعية ورأسمالية .
- د - المساواة بين الامم والشعوب .
- ه - اعتقاد مبدأ العطاء لا مبدأ التبادل المتكافئ في تعاون الشعوب والامم بعضها مع بعض .

عندما تتحقق الشروط الخمسة الآتية الذكر يصبح تمثيل الدولة العالمية على ظهر هذا الكوكب امراً لا مناص منه او مفر .

السُّرُورَةُ

الدِيَالِكْتِيَكِيَّةُ ، الْمَادِيَةُ الدِيَالِكْتِيَكِيَّةُ ، الْمَادِيَةُ التَارِيَخِيَّةُ

١ — مدخل

إن الشيوعية هي وفق المفهوم الماركسي المرحلة النهائية التي يبلغها المجتمع في تطوره ، حيث تنتهي في هذه المرحلة من المجتمع جميع المتناقضات وتزول الطبقات وتفنى الدولة . ويصف كارل ماركس طريق المجتمع إلى الشيوعية في بهذه «البيان الشيوعي» ويقول بما معناه :

«إن تاريخ كل مجتمع عرفته المصور حق أيامنا هذه، هو تاريخ نضال الطبقات» وليس نضال الطبقات هذا الحرك الأكبر للتاريخ، إلا نقل «نضال المتناقضات» الذي يكون دينامية كل واقع ، إلى صعيد المجتمع البشري . فالجدل مشتبك في كل الكائنات على اختلافها . إنه بين الطبقات الاجتماعية المتباينة ، وبين الماضي والمستقبل ، بين مذهب إنتاج تخطاه التقدم التكنولوجي ، وبين مذهب انتاج آخر سيطّلبه التطور التاريخي ، بين طبقة رجعية وطبقة أخرى تقدمية . إنما يجب أن تتفوق الطبقة التي تمجد التقدم على دعاة الرجعية . ولا تحل الأزمة الناجمة عن الصراع إلا بتخطي الحالة الحاضرة في «مركب» جديد تتضافر إرادته الانسان الحرة مع قوى الطبيعة على تحقيقه ، فالقضية (These) في الحقل الاجتماعي هي نضال الطبقات، تفيها ديمكتاتورية البروليتاريا، فتقضي على الطبقات في المجتمع ، وتكون النقيض (Antithese) ، ثم يعقبها المجتمع الشيوعي الذي تنتهي عنده حقبة ما قبل التاريخ الانساني ، فتتصالح فيه القضية مع نقيضها في

مركب Synthese جديد لا أو فيه للتناقض ولا للنزاع ، مركب يسوده الأمن ويفسره الاطمئنان .

تنبع الشيوعية من فلسفة مناقضة ومناهضة للفلسفه المثالية وهي « فلسفة المادية الديالكتيكية » ، هذه الفلسفة التي تفسر الكون ونشوءه وتطوره تفسيراً مادياً يعتمد العقل والعلم والمنطق الادوات الوحيدة في فهم الكون وتحليل احداثه . وعن الفلسفة المادية الديالكتيكية تنشأ حسب المفهوم الماركسي « المادية التاريخية »، ووظيفة المادية التاريخية هي تفسير وتحليل تاريخ الاجتماع والمجتمعات البشرية ، ومن ثم قيام النتيجة النهائية التي ستؤول اليها المجتمعات البشرية ، هذه النتيجة المتمثلة بالشيوعية .

إذن فلا طريق لنا لفهم الشيوعية سوى دراسة الديالكتيكية ، فالمادية التاريخية ، فما هو الديالكتيك ؟
يعرف لينين الديالكتيك بقوله :

« ان الديالكتيك بالمعنى الخاص الكلمة هو درس المتناقضات في ماهية الاشياء نفسها » .

ان الديالكتيك ليس بالفلسفة الجديدة ولا بالنظرية الجديدة الى الكون ، فلقد كان للاورقين شأن كبير في بحثه ، وخاصة فلسفه اليونان ، وعلى الاخص هيرقلطيون الذي وصف بأنه فيلسوف التغير وعدم الثبات . ولنلاحظ الان عبداً التناقض الذي يسود فلسفة هيرقلطيون في الجمل الآتية :

« ان الاتحادات هي الاشياء الكاملة وغير الكاملة ، انها التوافق والاختلاف ، انها الانسجام وعدم الانسجام ، عن جميع الاشياء يصدر الواحد ، وعن الواحد يصدر جميع الاشياء » .

ويقول هيرقلطيون في مكان آخر :

« انسا ننزل ولا ننزل في النهر نفسه ، وان الطريق التي ترتفع والتي تنحدر واحدة وهي هي نفسها » .

ما ورد يتضح ان هيرقلطيس يرى ان الكون يتالف من عناصر متناقضة في جوهرها، وان هذا التناقض هو الاساس في الحركة، وفي التبدل الازلي الابدي والتحفيز المستمر، وهذا هو اساس الديالكتيك وجوهره.

وهيرقلطيس يحظى باعجاب واحترام فيلسوف الديالكتيك الحديث « هيغل »، إذ ان هيغل يقول عنه :

« ما من قضية نادى بها هيرقلطيس الا تبنيتها في كتابي المنطق » كما ويقف « لينين » مبهوراً مذهولاً وهو يقرأ كلمات هيرقلطيس التالية :

« العالم هو واحد لم يخلقه اي الله او انسان »، وقد كان ولا يزال وسيكون شعلة حية الى الابد تشتعل وتنطفئ وفقاً لقوانين خاصة معينة ».

ويتعلق لينين على هذه النظرية ، نظرية هيرقلطيس ، بقوله : « يا له من شرح رائع لمبادئ المادية الديالكتيكية ! »

ولا شك ان القارئ يدرك ان هيرقلطيس حيناً قال ان العالم كان ولا يزال وسيبقى الى الابد « شعلة حية » فانما كان يعني بان العالم متحرك ابداً ، وحركته وسكونه يتنافر وفقاً لقوانين خاصة ، وهذا هو الديالكتيك بعينه .

ويفسر اتباع المدرسة الافلاطونية الحديثة نشوء الكون وتطوره على ضوء الديالكتيك الصوفي ايضاً فيقولون :

« الواحد كان اصل الموجودات ، والواحد خالد لا يتغير ، والموجودات من « العقل الاول » الى الروح الكلية ، الى العقل الثاني ، واخيراً الى الارواح الفردية التي تتعدد بمخالطتها للمادة ، وتتفرد ، جميعاً تقىض عن الواحد » عن طريق مشاركة مسلسلة بصورة عالمية ».

ما ورد يظهر لنا جلياً المنبع الذي استقى منه « هينا » جوهر وقوانين ديالكتيك الثالثة ، التي سنجي « على بحثها فيما بعد » ، واعني بالجوهر هذا :

القضية These والنقيض Antithesis والمركب Synthese .

« فالعقل الواحد » هو القضية ، والارواح التي تتعدد بمخالطتها للمادة هي

التفصيض . غير ان العقل حسب مفهوم هؤلاء الديالكتيكيين المتصوفين يفتض عن ايجاد الوحدة بين القضية ونفيضها ، وهم يرون ان الوسيلة الى تحقيق الوحدة المذكورة هي « الوجود » (حلقات الذكر) حيث يتمكن العقل عن طريق « الوجود » من الاندماج في الله وبهذا ينشأ المركب .

ويستطرد هؤلاء الى القول ان المركب الناشئ عن اندماج العقل في الله ومن ثم عن صيرورته الله ذاته . اقول ان هذا المركب ليس خالياً من التناقض في داخله ، فالعقل واهه يعيقان داخل هذا المركب (الناشئ عن الوجود) جوهرين متباينين ، ومن ثم يستطرد هؤلاء الى القول بان التناقض الواقع في صميم الاشياء يصلع ذروقه في الله ، وان الانسان عندما يتحدث عن الله يجب ان يستعمل في لفته الكثير من الكلمات المتناقضة .

وقد كان لهذه النظرية « الافلاطونية الحديثة » او بالغ في توجيه الديالكتيكية الهيغيلية ، ومن ثم في تعليم دياناتيكي هيفل بالثالية ، هذه المثالية التي ادت في النهاية الى بروز المادية الديالكتيكية الممثلة في الماركسية .

اضف إلى هذا ان الديالكتيكية (المثالية) اثرت كثيراً في المسيحية ونشأ عن هذا الاثر ما يعرف بالجدل المسيحي ، وكان من ابرز فلاسفة الجدل المسيحي « دونيس الاريوباجي » . ويقال ان القديس بولس قد هدأ الى المسيحية ، وكان دونيس الاريوباجي يرى ان الله هو ذرة روحية Monade توحد بين جميع الذرات الروحية ، وهو « عقل كلي » لا يعقل (لاحظ الديالكتيك التناقض) وكلام لا يوسف ، معصوم عن ان يكون عقلاً وفهمًا واسماً ، وليس وجوده على نسق اي وجود ، انه السبب الوجودي لكل وجود ، بل انه خارج كلباً عن مقوله الوجود ، لانه قائم فوق كل ماهية ، وذلك حسب الوحي الذي صدر عن ذاته .

ويقول الديالكتيكيون المسيحيون انه يتوجب علينا ان نطلق على هذين الحكمين المتناقضين :

١ - ان الله من جهة اولى الوجود الخالص الذي يمحنه اللاوجود ، انه اصل بكل موجود .

٤ - ان الله ليس وجوداً مما نستطيع ان نتعنته به ، لذلك ينصح الديالكتيكيون المسيحيون بوجوب عدم اللجوء ابداً الى اللاهوت اليماني الذي يتلوى ثبات وجود الله ، ويقولون بأن اللاهوت المصيب هو اللاهوت السلي الذي يتوقف عند عتبة انكار الادلة والبراهين لقضية وجود الله ويترسل هؤلاء في قولهم انه عندما تصبح القضية قضية معرفة الله ، فان خير معرفة لهذه القضية هو معرفتنا باننا لا نعرف شيئاً، ويسمى القديس اوغسطين هذه المعرفة « المعرفة بالجهل ».

وقد لاقت الديالكتيكية المسيحية المبنعة عن الافلاطونية الحديثة انتشاراً واسعاً في المانيا خلال القرن الرابع عشر ، وكان ابرز من جال في هذا الحقل راهب دمبينيكي يدعى « جان اكهارت » (١٢٦٠ - ١٣٢٧) وقد حاول هذا الراهب ان يثبت وجود الله ، وذلك وفق « ثالوث الديالكتيك » على الشكل الآتي :

القضية - ثبات وجود الله الذي هو الوجود ذاته .

النقيض Antithese الله ليس شيئاً ولا خلوقاته وهو غير قابل للمعرفة ليس بالنسبة اليها فحسب ، بل بالنسبة الى نفسه ايضاً (فالله كما يقول « اكهارت » لم يكن لها قبل الخلق وحيثما خلق الخلوقات التي هو وجود لها خلق بذلك نفسه).

المركب Synthese تخلى الروح عن نفسها لتتلاشى في الله عن طريق الاتحاد الصوفي .

ما ورد يتضح تماماً ان الديالكتيك حتى في المسيحية يعني كما قال لينين درس المتناقضات في ماهية الاشياء . غير ان القاريء لا شك يرى ايضاً ان جميع انواع الديالكتيك السابقة للديالكتيك الهيفيلي والديالكتيك المادي الماركسي كان ابداً يحمل البحث في اثر انعكاس ديدالكتيك الطبيعة على المجتمع والتاريخ . وسبب اهمال هذا البحث الجوهرى الذي استكمله فيما بعد هيغل فهاركس وان ناقض الاول الاخير ، اقول ان سبب هذا الامال يعود اولاً واخيراً الى كون الديالكتيك فيما سبق لميغل وماركس ركز منه على حل مشكلة الوجود وقضية الله . ولما كان الانسان هو ايضاً جزء من الوجود لذلك اصبح من المحتوم وفق القوانين

الديالكتيكية التي تقول بالحركة ان يمتد الفكر الانساني الى بحث انعكاسات ديانات الكتب الطبيعية على المجتمع البشري وعلى التاريخ، لهذا وافق قانون الديالكتيك كما قلت سابقاً كان لا بد من بروز مفكرين اخرين يصلون ويحولون في هذا الحقل كهيفل وماركس وانكلز وغيرهم .

ب — فلسفة هيغل

يعتبر هيغل (١٧٧٠ - ١٨٣١) والد الديالكتيك الحديث، وذلك لأن هيغل هو أول من اقام الديالكتيك على اسس علمية ثابتة ، وخطا بالديالكتيك الى الحقل العلمي وجعل منه فلسفة ايجابية لا تقف عند السفسطة او الجدل المجرد او عند عرض القضية ونقضها، بل تعمى هذا جيماً الى حل القضية وفق المفهوم الهيغلي (اقول وفق المفهوم الهيغلي) وذلك لأن الديالكتيك كان حتى هيغل محصوراً في افكاره ومناقشه وفلسفاته ضمن دائرة «فن البرهان او فن دحض البرهان». وهذا ما معناه ضمن دائرة سلبية غارقة في السلبية، اذ ان هذه القاعدة لم يكن بامكانها ان تخرج الى الميدان الايجابي ، واعني بهذا الميدان ميدان حل المناقضات وذوبانها وتلاشيه في المركب Synthese لهذا غدا الديالكتيك على يدي هيغل «فن اذابة المناقضات وتلاشيه» .

قلت فيما سبق من بحثي ان هيغل تأثر تأثيراً بالغاً بالديالكتيكية الصوفية وان هذا التأثير جعل الديالكتيك الهيغلي مع كونه قد بني على اسس علمي ينحرف او بالاحرى يتوجه نحو المثالية في تفسير الطبيعة وشرح اثر ديانات الكتبها على المجتمع الانساني. وهذا الاتجاه يجعل هيغل احد الافراد البارزين المجددين من زمرة فلاسفة الديالكتيك الافلاطوني الحديث، وبصورة ادق احد فلاسفة الديالكتيك المسيحيين، ولذلك فاننا اذا اردنا ان نصدر حكماماً عادلاً على هيغل فان حكمنا سيكون ان هيغل لم يكن ثورياً في فلسفة الديالكتيك اي انه

لم ينحرب ببعض الديالكتيك الخرافاً جذرياً ومعاكساً تماماً لجراء السابق ، بل انما سار في المجرى ذاته الذي سارت فيه الأفلاطونية الحديثة وال المسيحية . ولنسمع الآن ما يقوله هيغل وما تقوله المسيحية :

يرى هيغل ان الفكرة Idea هي خالق الواقع و صانعه ، و ان الواقع ليس الا الشكل الحادثي للفكرة .

ويقول يوحنا في الجيل له وفي السطور الاولى من الاصحاح الاول ما يلي : « في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله . هذا كان في البدء عند الله ، كل شيء به كان ، وبغيره لم يكن شيء بما كان » .

نحن نعلم ان الفكرة تسبق الكلمة منطقاً ، فالفكرة ثم الكلمة ، ولذلك فنحن اذا استبدلنا كلمة « الكلمة » التي جاءت في الجيل يوحنا بكلمة الفكرة وهذا الاستبدال سيكون صحيحاً من وجهاً تسلسل الافعال « الفكر فالكلمة » ، وقلنا : « في البدء كانت الفكرة ، والفكرة كانت عند الله وكانت الفكرة الله ، هذا كان في البدء عند الله ، كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء بما كان » .

اقول اذا قمنا بهذه العملية البسيطة نرى ان هيغل لا يكتفي في ديالكتيكه بالديالكتيك المسيحي فقط بل انما ينوب فيه ويتأثر تلائياً كلباً .

اما فضل هيغل كما قلت سابقاً فاما ينحصر في امرتين : الاول ابراز ما للتناقض من اهمية حيوية في الكون ، والثاني قانونه القائل باذابة التناقض في المركب .

يقول هيغل : « ان ما هو واقعي هو عقلي وما هو عقلي هو واقعي » وانه لذلك يجب ان يكون الواقع جميعه في مرتبة الفكر ، وان الفكر متأكد من انه مسيجد نفسه في العالم من جديد ومن ان العالم يجب ان ينسجم معه ومن ان العقل الذي يتبعه له ان يبحث عنه في العالم ليس الا العقل ذاته .

ويقول هيغل ان هناك عقلين : الاول عقل مجرد هو عقل الرياضي الذي يعمل في مجال التجريدات ويبقى بذلك خارج الواقع ، والثاني عقل مشخص هو عقل العالم الفيزيائي او المؤرخ الذي يعمل في مجال الواقع عن طريق اصطناع الحيلة

بفية مشاهدة صيرورته .

ويرى هيغل ان العقل هو روح الكون ، وهو الاساس العام للوجود ، وان المنطق يندمج في الميتافيزيقيا التي هي كما يقول هيغل (الميتافيزيقيا) علم ادراك الاشياء بشكل افكار ، وتعتبر هذه الافكار انها تعبر عن ماهية الاشياء . كما ويرى هيغل ان التفكير من حيث هو « التفكير الموضوعي » هو المبدأ الباطني للكون .

ويستطرد هيغل في عرض فلسفته فيقول في الموسوعة ٢٤ :

« كا ان التفكير يكون جوهر الاشياء الخارجية ، بذلك يندو (التفكير) الجوهر العام للموجودات الروحية . ففي كل حدس انساني يوجد تفكير . والتفكير كذلك هو العنصر العام لكل تصور ولكل ذكرى ، كا انه العنصر العام لكل فعل ارادي ، وبصورة عامة لكل فعالية نفسية ولكل رغبة . فانواع النشاط النفسي المختلفة هذه ليست سوى اشكال للفكر تترافق بين الوضوح والابهام » .

ويستطرد هيغل فيقول :

« فالتفكير من هذه الوجهة يبدو لنا على شكل مغاير لما اعتدنا قوله من ان ملكة التفكير هي احدى الملائكة التي يتألف منها كياننا النفسي كالحدس مثلا او التصور او الارادة الخ ... فاذا كنا نعتبر ان التفكير هو في الحقيقة المبدأ العام لكل وجود ، طبيعياً كان ام روحياً ، فهو اذن يشمل جميع الاشياء ويهيمن عليها ، وهو في نظرنا اساس كل شيء » .

وانظر مدى تأثر هيغل بالديالكتيكية الصوفية المسيحية ، وذلك عندما يقول هيغل في الموسوعة الفلسفية ٢٤ ما يلي :

« ان الله هو وحده المطابقة الحقيقية بين التصور الذهني والواقع » .

ج — ديالكتيك هيغل

يقول هيغل ان الديالكتيك يقوم في كل المجالات وتحت جميع الاشكال الخاصة
لعالمي الطبيعة والروح . فهو يقوم مثلاً في حركة الاجرام السماوية ، وان من
طبيعة احد الكواكب اذا وجد الان في مكان ما ان يوجد ايضاً في مكان آخر .
فندرته على الحركة التي هي خاصة به ، هي التي تنتجه ان يكون له هذا الوجود
الآخر (وذلك بالنسبة الى المكان الآخر) .

كذلك يوجد في العناصر الفيزيائية صفة جدلية ، وما صفتها الجدلية إلا تلك
الظاهرة المناخية ، بل ان نفس المبدأ هو الاساس لكل العمليات الطبيعية ، وهو
في الوقت ذاته ما يجعل الطبيعة تندفع من أجل التعامل على ذاتها ، وذلك كي تنتج
الوعي والروح بالإضافة الى الحياة .

اما فيما يختص بوجود الجدل في عالم الروح او بالاحرى في عالم التشريع
وعالم الاخلاق فانه يكفي هنا ان نتذكر كيف ان الدرجة القصوى لحالة ما من
الحالات (العقدة وسترخها فيها بعد) او النوع من النشاط ، تقلب عادة
بموجب التجربة المشتركة الى ضدها .

وهذا النوع من الجدل معروف في الكلمات المأثورة التالية :

« إن الإفراط في العدالة هو غاية الظلم » .

ويستطرد هيغل فيشرح هذه النظرية قائلاً :

إنه اذا بولغ في التقى بالقانون المجرد، فستؤدي هذه المبالغة الى الظلم . كذلك
نحن نعرف ، في المجال السياسي ، ان هذين الحدين في تناهيهما ، وهم الفوضوية
والاستبداد ، يؤدي عادة احدهما الى الآخر .

ويسترسل هيغل في عرض فلسفة ديالكتيكه فيتناول اثر الديالكتيك في
نفس الفرد واخلاقه فيقول :

إن الشعور الجدي على الصعيد الفردي في المجال الاخلاقي تجده في هذه

الكلمات المأثورة والمعروفة جيداً :

« ان الغرور يسبق الانهيار - وسرعاً ما تُغل السكين الحادة جداً »
فالحسناية الجسدية والأخلاقية لها ايضاً جدها . فنحن نعرف ان الدرجات
القصوى للالم وللفرح تقلب احداهما الى الاخرى (لاحظ زيادة الكلم تؤدي الى
تغير في الكيف) فالقلب المفعم بالفرح يعبر عن فرحة بالدموع ، وغالباً ما يحدث
ان الحزن العمق يعبر عن نفسه بابتسامة .

ويり هيغل ان جميع الاشياء هي ذاتها متناقضه، وان التناقض هو مصدر كل حركة ومنبع كل حياة ، وانه هو اكثر المبادىء (مبدأ التناقض) تعبيراً عن حقيقة الاشياء وما هيتها . ويقول هيغل بان الشيء لا يتحرك إلا لأن في صيغته تناقضاً تنتج عنه قوة ونشاط فائدفاع . ويقول هيغل بان الشيء لا يتحرك لأن يكون مرة هنا وآخرة هناك ، بل لأنه يكون في اللحظة الواحدة نفسها هنا وليس هنا ، لأنه يكون ولا يكون في آن واحد في نفس المكان .

ويستطرد هيغل فيستنتج القواعد الفلسفية التالية :

- ١ - ان الفكرة تؤلف المضمن المشترك للطبيعة والروح .
 - ٢ - إن الفكرة (Idea) لا توجد في الطبيعة الا كعضو خارجي
 - ٣ - ان الطبيعة يمكن اكتشافها في الضمير الديني .
 - ٤ - ان الطبيعة في رأي الضمير الديني هي تحجل للذات الالهية .
 - ٥ - ان الطبيعة لا يمكنها ان تأخذ وعيًا عن ماهيتها الالهية .
 - ٦ - ان الروح وحدها هي التي يمكنها ان تعنى الماهية الالهية للطبيعة .
 - ٧ - ان الله يطلع ماهيته ويجعلها تتجل في الطبيعة وب بواسطتها .
 - ٨ - ان الكون لا تتصرف به المصادفة ولا الاسباب الخارجية الغرضية ، بل

تدرء العناية الالهية .

ويرى هيغل في العقل الجوهر الذي يمكن ويتكون فيه وجود كل حقيقة ،
وان العقل وحده هو الذي يوفر للحقيقة استمرار الوجود ، كما ويرى هيغل ان
العقل ليس عاجزاً الى حد لا يمكنه الوصول الى المثل الأعلى ، الى وجوب الوجود ،

وانه لا يستطيع ان يوجد الا خارج الواقع ، فالعقل هو المضمن اللانهائي ، أي انه كل ماهية وكل حقيقة . أضف الى ذلك ان العقل لا يحتاج ، مطلقاً ، كالفعالية المحدودة ، الى مواد خارجية ووسائل يستمد منها الغذاء والمادة الضروريين لنشاطه ، فهو – أي العقل – يعيش على جوهره الخاص ، هذا الجوهر الذي يصنعه من اجل نفسه . كما وان العقل لا يفترض شيئاً آخر غير ذاته وغايته ، التي هي نهاية المطلقة . ويرى هيغل ان العقل لا يتجل في العالم المادي ، بل لما تتجلى ايضاً في العالم الروحي الذي يمثل في التاريخ ، وان هذه الفكرة – Idea – هي الحق والابد والقدرة المطلقة ، وانها تتجلى في الكون ، وهي وحدها (Idea) التي تتجلى فيه بكل عظمة ومجده .

ويستطره هيغل في حديثه عن العقل فيقول بأنه هو الذي قتألف منه القوانين الثابتة التي تحدث بوجبها حركة النظام الشمسي ، وان الشمس والكواكب التي تدور حولها ليس لديهاوعي لحركاتها ، وان الانسان هو الذي يستنتج هذه القوانين من الظواهر الطبيعية وهو وحده الذي يعرفها .

وعندما يصل هيغل الى هذا الحد ، وقبل ان يفرق في المقلانية والمادية يعود حالاً الى مثاليته وصوفيته المسيحية فيقول :

« ولكن اذا كنت قد تكلمت عن بدء ظهور هذه الفكرة ، ألا وهي ان العقل يدبـرـ الكـونـ ، وـاـشـرـتـ الىـ ماـ اـعـتـرـضـهاـ منـ نـقـصـ ، فـهـاـ ذـلـكـ الاـلـآنـ هـذـاـ التـنـقـدـ يـنـطـبـقـ بـتـامـهـ عـلـىـ ماـ نـعـرـفـ هـذـهـ الفـكـرـةـ (Idea)ـ مـنـ شـكـلـ آـخـرـ ، أـلـاـ وـهـوـ يـأـمـانـنـاـ بـهـذـهـ الـحـقـيقـةـ الـدـيـنـيـةـ مـنـ حـيـثـ انـ الـكـوـنـ لـاـ تـتـصـرـفـ بـهـ الـمـاصـادـفـةـ ، وـلـاـ الـاسـبـابـ الـخـارـجـيـةـ الـعـرـضـيـةـ وـاـنـاـ تـدـبـرـ عـنـيـةـ هـيـ الـعـنـيـةـ الـاـلـهـيـةـ . »

ويعرف هيغل العناية الالهية بالحكمة المقابلة للقدرة اللانهائية التي تحقق غایاتها ، اي غایات الكون النهائية المطلقة العقلية او العقل ، فالعقل على حد تعبير هيغل هو التفكير الذي يتحقق ذاته بكل حرية .

ويرى هيغل ان العناية الالهية هي التي ترسم وتحدد للتاريخ مجراءه ، ويسمى هيغل عمل العناية الالهية هذا « بخطط العناية » ويقول هيغل ان هذا المخطط

يبقى خافياً عن انتظاره ، وانه لمن الخسارة مكان ان تحاول ادراكه .
ولا شك ان القاريء يرى هنا التوافق للناتم بين هيغل وبين نظرية « المعرفة بالجهل » (Doctrine of Ignorance) واللاهوت السلي الذي ثادت به الديالكتيكية المسيحية للصوفية .

ويستطرد هيغل الى تفسير التاريخ فيقول : ان التاريخ هو نتاج العقل الخلاق ،
وان معرفتنا تهدف لأن توضع لنا : ان الحكمة الخالدة ، كما أنها استطاعت ان
قدرك القصد من تحقيق غاياتها في مجال الطبيعية ، كذلك ادركته في مجال
الروح ، هذا الروح الذي يؤثر في الكون ويتحقق فيه ، فتأملنا في الوجود هو
كتنائية عن نظرية الهمية Theodicy او هو تبرير لوجود الله .

اما نظرية هيغل في الخير والشر التاريخيين فهي نظرية تفاؤلية مثالية أكثر
منها ديانة دينية بالمعنى الحرفي للدينية ، من حيث ان الزيادة في « الكم »
تؤدي الى تغيير في « الكيف » إذ ان هيغل يقول بأن كل ما في الوجود من
شر ، بما فيه الشر الاخلاقي ، لا بد من ان يتتعقل (لاحظ كلمة يتتعقل ، وقابلها
بكلمة ينتفي التي هي التعبير عن الفعل الجذري الثوري للدينية) كما وانه
لا بد من الموافقة بين الروح التي تفكّر ، وبين « السالب » (الشر) . ويقول هيغل
بان وسلتنا الى تحقيق هذه الالفة بين الروح و « السالب » فالسالب هي معرفة
« الموجب » الذي فه يتلاشى السالب ، فالسالب هو لحظة تابعة للموجب (لاحظ
هذا التعبير) وبما أنها كذلك فان « الموجب » متعمالٍ عليها . وعندما نأخذ
وعيناً عن غاية الوجود النهائية (وهي خير في جوهرها على حد ايمان هيغل) ندرك
أن هذه الغاية قد تحولت فيه بالفعل ، وان الشر لم يتبدى الى جانب هذه الغاية
بعقدار تبدي الغاية نفسها . وينتهي هيغل الى تقرير ما يلي :
ان مقوله « السالب » التي سبق الكلام عنها ، ترينـا كيف ان ما هو نبيل
وجميل في التاريخ يضحي به على ميكل « السالب » ولكن العقل لا يلبث ان
يدفع السالب ليجعل الغاية الامحاجية محلاً .

و - قوانين الديالكتيك الثلاثة :

هناك ثلاثة قوانين منبثقة عن الديالكتيك الهيغلي تؤمن بها الماركسية في دياlectikkha المادي وتلتبسها وهذه القوانين هي :

ا - قانون وحدة المتناقضات .

ب - قانون العبور من الكمية الى الكيفية .

ج - قانون نفي النفي .

١ - قانون وحدة المتناقضات :

ينص هذا القانون على ان التناقض هو ينبوع كل حركة وحياة ، وان الحركة الذاتية مستخلصة من هذا الواقع ، ويقول هذا القانون ان كل شيء يوازي ذاته وينفي ذاته معاً .

فالزهرة مثلا هي زهرة ونفي للزهرة في الوقت نفسه ، وذلك بقدرة الزهرة على ان تصبح ثمرة . اما سبب حياة كل كائن فهو ان الكائن يحمل داخل ذاته متناقضات تتبع له التطور وتبتعد فيه الحركة .

وقد اعجب لينين بهذا القانون فضمه الى المادية الديالكتيكية ، واشبه دراسة وتطبيقا في العديد من مجالات الفكر المادي الديالكتيكي . وسبب اعجاب لينين بهذا القانون - قانون وحدة المتناقضات - يعود الى أن لينين رأى ان هذا القانون يفسر عدم وجود « المرك الاول » (الله) منطقاً وعقلاً ، وان وجود المتناقضات داخل عضو من العناصر هو الذي يؤدي بالتالي الى تفاعಲها فتحرکها فحركتها .

٢ - قانون العبور من الكمية الى الكيفية :

هناك نظرتان في هذا القانون ، النظرة الاولى وهي نظرية المادية الميكانيكية

التي تقول ان تطور العالم يتم نتيجة لتبدلات كمية محددة في الاشياء ، اما النظرة الثانية وهي النظرة الماركسيه فتقول ان التطور يتم بتبدلات كيفية ، وان كل قبديل يطرأ يكون بادىء ذي بدء ، كيما ثم يزداد « كما » حق يبلغ حدأ يدعوه هيغل « بالعقدة » حيث لا يستطيع ان يتحول فيه الشيء ويبقى في الوقت ذاته نفسه ، (أي لا يعود الشيء يوازي ذاته وينفي ذاته معاً) .

وهنا تقطع المقدمة او تنفجر اذا جاز لنا هذا التعبير (أي تحدث الثورة) فتبدل « كيفية » الشيء .

ويضرب الماديون الدياليكتيكيون المثال التالي :

اذا سخنت الماء حتى درجة مئه سنتيغراد ثم تابعت تسخينها فارتقت حرارة الماء الى ما فوق المئة سنتيغراد فعندئذ لا يستمر الارقاء الكبي في الحرارة ، بل انما يتبدل الماء الى بخار ، وبذلك يحدث تبدل كيسي ، وهذا ما يحدث ايضاً اذا تدنت درجة حرارة الماء الى تحت الصفر ، فانه عندئذ يتبدل « كيفية » اذ يغدو جليداً .

٣ - قانون نفي النفي :

يمدد هذا القانون القضية والنفي والمركب (These- Antithese, Synthese) كراحل للتطور . فالقضية تتداعى تحت تأثير متناقضاتها التي تضع بالتنافر والخصام ، فتخلي المكان للنفي الذي ينفي القضية ، ويحاول القضاء على المتناقضات غير انه (أي النفي) لا يوفق في محاولته الى حشو آثار المتناقضات القائمة في القضية فيرث عنها عناصر نزاع وصراع تعطيه بكتابه ، فيقوم المركب على انقاذه وينفي هيكله من العناصر الطيبة للقضية والنفي معاً . وبهذا ينفي المركب النفي الذي بدوره ينفي القضية ، وبذلك يصبح المركب نفي النفي .

ويضرب على ذلك المثل التالي :

البذرة التي تصبح شجرة، فالشجرة التي تعطي الثمرة هي نفي للبذرة، والثمرة التي تحملها الشجرة هي نفي للشجرة، إذن فالثمرة هي نفي نفي.

هذه لغة سريعة عن فلسفة هيغل الديالكتيكية، وقد سعى كاتبنا للاحظ القاريء ان أعطى لغة خاطفة عن جميع آراء هيغل في الله ونشوء الكون والأخلاق والعقل والتاريخ في مجرأه وتطوره، وسبب ذلك ان الانسان لا يستطيع ان يفهم الماركسية في ماهيتها الديالكتيكية وماديتها التاريخية دون ان يتم بديالكتيك هيغل وذلك لانه من هيغل، ومدرسته تفرعت النظريات الديالكتيكية الحديثة من يمينية ويسارية كالماركسية.

ان كارل ماركس يعتبر theorist الاول على المدرسة الديالكتيكية الهيغلية وعلى جوهر فلسفتها، وذلك في نظرته الى ردود الافعال الناشئة عن التناقض الذي هو في نظر الفلسفتين الهيغلية والماركسية أساس كل حركة وحياة وتطور في الحياة. وكارل ماركس مع نقده الشديد للفلسفة الهيغلية يقر ويعرف بمحض هيغل وفضلها في هذا المضمار، وهو يقول بصريح العبارة بأنه اقتبس من الفلسفة الهيغلية النقاط العلمية المجردة ونحن لا نستطيع مع عدم اتفاقنا وهيغل في الكثير من ابواب فلسفته إلا ان نقرر ان هيغل كان من ابرز فلاسفة عصره ان لم يكن ابرزهم جميعاً، وانه أحد الفلاسفة القلائل الذين ساهموا مساهمة فعالة في تحطيم وبناء الفلسفات الحديثة المدنسة البرجوازية، كما وأن اثره بارز وفعال في النظريات الاشتراكية المتماثلة كالاشتراكية البريطانية وغيرها.

اما مأخذنا الرئيسية على « هيغل » فهي تصب في ان فلسفة هيغل قد أدت خدمات جلّي للطبقات البرجوازية المتوسطة والكبيرة، وقد عملت على بلبلة افكار الطليعة من « الانجلجنسيا ». وساعدت على تدعيم النظام القيصري الاستبدادي، وتدعيم الدولة الالمانية التي كانت تشرف عليها آنذاك الارستقراطية والرأسمالية والعسكرية الالمانية. وكان هيغل ينظر الى الدولة كجواهر مقدس دون ان يحدد شكل الدولة او يحدد اتجاهاتها ومذاهبها الاجتماعية ذات المحتوى الانساني، ولهذا لاقت فلسفة « هيغل » تحبيداً ورحباً شديدين من قبل القيصرية

الالمانية التي اعتبرتها الفلسفة الرسمية للدولة .

ومن المؤسف ان يكون فيلسوف كبير كهينغل نسي او تنسى العمال وال فلاحين كطبقة تشكل الاكثريه الساحقة من الامة ، ونسي او بالاحرى تنسى دورها الهام والحيوي في التاريخ ، ونسي او بالأحرى تنسى ابسط حقوقها في الحياة ، اذ ان مثاليلته وایمانه بوجود ما اسماه « بمخطط العناية الالهية » قد جعلت من فيلسوف الصراع والدياليكتيك فيلسوفاً يؤمن بالقدر والقدرة .

لقد كانت تنتاب « هينغل » ازمات ضمير عنيفة ، وكان يامن ان فلسفته لم تحل مشكلة الفرد الانسان ، لذلك بذل في جميع مؤلفاته جهوداً حثيثة لايجاد قواعد ومتاهج انسانية للتربية الفرد كمواطن في ظل الدولة القومية ، وتربية الانسان كأنسان ، ولكن من المؤسف ان جميع جهود هينغل في هذا المضمار قد لاقت فشلاً ذريعاً ، ولذلك جاء كل ما خطه وكتبه عن هذا الامر غامضاً مبهمًا لأن الدولة، هذا الكيان « المقدس » حسب ايمان هينغل ، والدولة القىصرية الالمانية بالذات ، كانت تسد أمامه طريق الحق والحقيقة .

وهذا الایمان العميق بالدولة ككيان مقدس انحرف في النهاية بهينغل عن جوهر فلسفته بالذات ، وضرب عرض الحائط بقانون اذابة المتناقضات في المركب (Synthese) ونفيها تقلياً كلياً، اذ أنه سعى في نشاطاته الفلسفية لا لينفي المتناقضات بل ليعد صلحاً بينها ، والصلح كما يعلم القاريء بين المتناقضات امر مستحيل التتحقق . لقد دعا الى المؤالفة بين الروح التي تفكير وبين « السالب » « الشر » على حد تعبيره ، واعتبر الشر لحظة تابعة للموجب ، وغرق في خضم « فكرته » « Idea » وجعل هذه « الفكرة » في جوهرها خيرة ، فأغرق في التفاؤل والایمان بأن جوهر الخير في « الفكرة » لا بد ان ينتصر ، وأن العقل لا بد ان يطرح السالب « الشر » ليحل الغاية الاصحابية محله . وبذلك غلى هينغل روح الاتكالية في الجماهير وجعلها تستسلم الى مصيرها منتظرة من الشر أن « يتعقل » حسب تعبير هينغل ، ومنتظرة من العقل ان يسود فيمني المتناقضات في المجتمع ، غير عالم ان سيادة العقل وتحقيق الحق والعدل في المجتمع هو النتاج

الآلي والوحيد لصراع المتنافضات داخل المجتمع ، وان الحركة في جسم اشكالها ومجاراتها ، لا العقل ولا «تعقل الشر »، هي وحدها التي تدفع المجتمع في النهاية الى تجسيد الحق والمعدل في رحابه ، لذلك كله فاني شخصياً اعتبر « هيغل » حسب اجتهادى مفترق الطرق للديالكتيك ، اذ ان من هيغل تبدأ حركة الديالكتيك الجديدة ، الحركة الماركسية ، التي لا تسير متوازية والديالكتيك الهيغلي ، وانما تسير في اتجاه معاكس له تماماً ، اتجاه لن يمكنها ابداً ، بعد انطلاقها من قوانين الديالكتيك الهيغليمة الثلاثة ، من الالقاء بها من جديد او الاتفاق معها ، او حق مهادتها ، وبهذا يقول كارل ماركس في كتابه «رأس المال » الجزء الاول ما يلى :

« ان طريقي الديالكتيكية لا تختلف عن الطريقة الهيغليمة من حيث الاساس فحسب ، بل انما هي ضدتها تماماً ».

ويقول ستالين في كتابه المادية الديالكتيكية والمادية التاريجية (ترجمة خالد بكمداش) الصفحة - ١٣ - :

« عندما يعرف ماركس وانكلز طريقتها الديالكتيكية يرجعان عادة الى هيغل ، باعتباره الفيلسوف الذي ابان الخطوط الاساسية للديالكتيك ، غير ان ذلك لا يعني ان ديانة الديالكتيك ماركس هو عين ديانة الديالكتيك « هيغل » لأن ماركس وانكلز لم يقتبسا من ديانة الديالكتيك « هيغل » سوى « نوافذ العقلية » وطرحها قشرته المثالية ثم وسعاه وانسياه واعطياه طابعاً علمياً حديثاً » .

ز — الماركسيّة :

ليست الماركسيّة نظرية جديدة في علم الاقتصاد السياسي فحسب ، بل انها مفهوم عام للعالم ونظرة فلسفية شاملة الى الكون . فكارل ماركس ليس

بفيلسوف مجده فحسب ، بل إنها هو فيلسوف ثوري بكل ما الكلمة الثورية من معنى ومفهوم ، إذ إن في ماركس ببدأ مفهوم جديد للفلسفه ، مفهوم يتناقض والمفهوم المثالي ، هذا المفهوم الذي منه تنبع جميع الاديان من يهودية ومسيحية واسلامية وغيرها من المذاهب الميتافيزيقية . ان فلسفه ماركس تهم في جوهرها يجمع جميع القضايا التي تنس من قريب او بعيد مشكلة الانسان ، انها تعالج قضية نشأته في الكون ، والمكان الذي يشغلها ، و مهمتها على هذه الارض ، ومصيره انتاريخي ، وحياته وطريقته لممارسة هذه الحرية ، و موقفه من قضية الله كفكرة وجوده ، وهي ، أي الماركسيه ، تعنى يجمع جميع ما تفرع و يتفرع من الفلسفات من مذاهب ، وذلك منذ القدم حتى اليوم

وانا لا اقول هنا ان ماركس هو الذي خلق الماركسيه ، بل ان الماركسيه هي كل علم او مذهب نتاج جهود جماعية منذ هرقليط حتى ماركس : غير ان فضل ماركس يبرز في تنسيق هذه الجهود في نظرية جديدة لها قوانينها الخاصة . وهذا لا يعني ابداً انتقاداً من قدر ماركس إذ ان ماركس قد اضاف الى تلك الجهود الجماعية جهوداً لو لاها لما استقامت للماركسيه ، كنظرية ومفهوم للكون ، قواعد وأسس .

و قبل ان اتابع حديثي عن الماركسيه يحتم علي الواجب ان أشير الى الجهود القيمه التي بذلها رفيق ماركس و صديقه فريديريك انكلاز ، هذه الجهدود التي أدت إلى تبلور الماركسيه على أسس علمية تعتمد العلوم الطبيعية دليلاً وبرهاناً ، وقد جاءت جهود انكلاز بارزة في كتابه المشهور « ديكالكتيك الطبيعة » هذا الكتاب الذي أعتبره معاذلاً في أهميته لمؤلف ماركس المشهور « رأس المال » .

فلقد كانت هناك حتى ظهور الماركسيه نظرة واحدة ومفهوم واحد للكون ، وكانت تلك النظرية وهذا المفهوم تعتمدان « الله » ، خالقاً ومحركاً اول للكون ، وترى ان الله قد خلق جميع ما في هذا الكون من شموس وكواكب واقمار وحيوان ونبات وجهاز ، وان « الله » هو الذي يدير ويوجه الاشياء كلها في جميع عناصرها . وعن هذه النظرية نشأت « الميتافيزيقيا » ، ونشأت جميع المفاهيم

التي تعيش بمنأى عن العقل والمنطق وبالتالي عن الادراك الانساني . وكان اول من سدد إلى «الميتافيزيقيا» طعنة نجلاه الفيلسوف الالماني «عمانوئيل كانت»، اذ جاءت نظرية «كانت» الكونية ، ومن ثم نظرية «لابلاس» في تفسير تكوين الاجرام السماوية من دوران «الكتل السديمية» بثباته الثورة على النظرية القديمة القائلة بأن النجوم وسمواتها هي صورة منذ الآلاف او الملايين من السنين عن الابدية اللامتحركة . ومن ثم جاء «داروين» الانكليزي ليقول بأن الحياة نشأت وتطورت من «الخلية الحية» الاولى «البروتست» حتى الانسان ، واخيراً جاء ماركس ليوجه الضربة القاضية الى «الميتافيزيقيا» التي تعتمد «الله» لها مفهوماً وجوهراً ، وليطلع على العالم بالفلسفة الماركسيه التي يتفرع عنها الان ما يعرف بالmadiee dialektiki و الماديه التاريخيه .

ح- الماديه dialektiki :

قلنا ان الماديه dialektiki تتعارض و «الميتافيزيقيا» تعارض تماماً و مختلفاً واما اختلافاً جوهرياً، وقد أبان ستالين في كتابه المعروف «الماديه dialektiki و الماديه التاريخيه» أوجه التعارض بين الماركسيه والميتافيزيقيا اذ قال في الصفحة ١٦ من كتابه المذكور - ترجمة خالد بكداش - ما يلي :

« تميز الطرق dialektiki الماركسيه بالخطوط الاساسية التالية .

«أ - إن dialektik خلافاً للميتافيزيقيه ، لا يعتبر الطبيعة تراكماً عرضياً للأشياء ، او حوادث بعضها منفصل عن بعض او احدها منعزل عن الآخر ، بل يعتبر الطبيعة كلها واحداً متاسكاً ، عرتبته فيه الاشياء والحوادث فيما بينها ارتباطاً عضوياً ويتعلق احدها بالآخر ، ويكون بعضها شرطاً لبعض بصورة متناسبة . »

ب - « ان الديالكتيك خلافاً للبياتافيزية ، لا يعتبر الطبيعة حالة سكون وجمود ، حالة ركود واستقرار ، بل يعتبرها حالة حركة وتغير دائم ، حالة تجدد وتطور لا ينقطعان ، ففيها دائماً شيء يولد ويتطور وشيء ينحل ويضمحل .»

ج - « ان الديالكتيك ، خلافاً للبياتافيزية ، يعتبر لها حركة التطور حركة غلو بسيطة لا تؤدي التغيرات الكمية فيها الى تغيرات كيفية ، بل يعتبرها تطوراً ينتقل من تغيرات كمية ضئيلة وخفيفة ، الى تغيرات ظاهرة واساسية ، أي الى تغيرات كيفية .»

اما ورد يتضح ان المادة الديالكتيكية هي المفهوم الماركسي في الفلسفة ، وهي كما يرى القاريء تعتمد المادة جوهرأً ونقطة لانطلاقها وترى ان التناقض الذي يكتنف المادة هو أساس كل حياة ووسيلة كل غلو وتطور ، وان وحدة المتناقضات في المادة (قانون وحدة المتناقضات) . هي التي تؤدي الى التبدل الكيفي ، وهي التي تخلق الحركة وتجعل جميع الاشياء متحركة ابداً ، والحركة كما ترى المادة الديالكتيكية ليست مجرد انتقال آلي ، بل انها التبدل الكيفي المستمر ، كما وان الجمود ، او السكون ، ليسا سوى مظاهر ، وما حالتان خامستان من حالات الحركة ، والحركة لا يمكن ان تخلق خلقاً ، كما ولا يمكن ان تباد ، لأن التركيب المادي للمادة ، هذا التركيب القائم على التناقض يجعل المادة في حركة دائمة ، وكل ما يمكن ان يعمل بالنسبة للحركة فهو توجيهها لا خلقها أو إبادتها كما قلت آنفاً ، والحركة هي شكل من اشكال الوجود للمادة ومظهر من مظاهرها .

وبهذا يقول إنكلز في كتابه « دialectiek الطبيعة » ما يلي :

« إنما تتحرك المادة في مدار خالد ، ولا ريب أنها دورة لا تكتمل إلا في مدد ليست ستة سنين الأرضية وحدة قياس كافية لها ، دورة فيها ساعة النمو الاعلى ، ساعة العضوية ، وكذلك الساعة التي تحيا فيها كائنات تعي ذاتها وتعي الطبيعة ، هذه الساعة تقاس مثل الدقة الصارمة التي يقاس بها المكان الذي توجد فيه الحياة ووعي الذات ، وهي دورة كل نقطه متنه من انساط وجود المادة سواء

أكان شمسيًّا أو سديميًّا ، حيواناً مفرداً أم جنساً من الحيوان ، هي كلها معاً عابرة عارضة ، وحيث ليس ثمة شيء خالد إلا المادة التي هي في تغير خالد في حركة خالدة ، وذلك وفقاً للقوانين التي تحكم حركتها وتغيرها .

ثم يستطرد انكلز في القول في الكتاب ذاته :

«ولكن أيَا كان التواتر والكثرة ، واية كانت الدقة الصارمة المطلقة الصرامة التي تم بها هذه الدورة في الزمان والمكان ، ومها كان عدد ملائين الشموس والارضين التي تولد وتتفنى ، ومها بلغ الزمن اللازم لكي تستقر وتتوطد الحياة العضوية في نظام شمسي ما ، ولو انحصر الامر في سطح كوكب واحد ، ومها كانت لا تختص الكائنات العضوية التي كان عليها في البدء الظهور والفناء قبل ان يخرج من داخلها حيوانات ذات دماغ قادر على التفكير ، وقبل ان تجد هذه في مدة قصيرة من الزمن الشروط الخاصة بجسدها ، ثم تباد بعدها ، هي ايضاً دون رحمة ، ازاء كل هذا نحن موقنون كل اليقين بأن المادة في كل تحولاتها تبقى هي ايها بقاءً خالداً ، وان ليس ثمة اية صفة من صفاتها يمكن ان تفقد ، وانها بالتالي اذا كان عليها يوماً في الارض ، بضرورة حتمية لا مرد لها ، ان تبيد وتتحقق ازدهارها الاعلى المتجلية في الدماغ المفكر ، فيجب بالضرورة والحقيقة ذاتها ان تعيي انتاج الدماغ المفكر في أي مكان آخر وفي اي زمان » .

ما ورد يتضح مدى اور نظرية « كانت ولا بلاس» الكونية ، ومن ثم نظرية « داروين » البيولوجية في المادية الديالكتيكية ، فالشيء الخالد الوحيد في الكون هو المادة في اصغر جزيئاتها ، والتناقض في عناصرها هو كاترى الديالكتيكية وسيلة كل نمو وتطور ، فلا مكان اذن هناك خالق او محرك اول ، فالحركة تتبعد من المادة ، وللمادة كاترى الماركسية ، فهن حي متاحف ، وبذلك يقول انكلز : « إنما اولى خصائص المادة واهما هي الحركة لا من ناحية كونها حركة آلية ورياضية فحسب ، بل من حيث هي ذهن حي متاحف ، او من حيث ما يسودها من قلق على حد تعبير « يعقوب بوهم » .
والمادة وفق المفهوم الماركسي ليست كتلة فحسب ، بل هي طاقة ايضاً ، والطاقة

هي الحركة ، ولا يمكن ابداً ان تفصل المادية البدالية الكبيرة بين الكتلة والطاقة ، إذ انها ترى انه لا انفصال بين الكتلة والطاقة، وذلك بسبب ما يكتنف المادة من تناقض ، كما ويقول الماركسيون ايضاً ان كل عنصر هو كتلة وطاقة ، ويستشهدون على ذلك بان العالم الرياضي « لابيديف » Lebedev قد اثبت علیاً ان للضوء كتلة ايضاً ، وانه لا توجد هناك مَا تعرف بالطاقة الحرجة (Pure Energy) كما وان العلوم النووية الحديثة قد اظهرت الارتباط الذي لا تنفص له عرى ، بين الكتلة والطاقة ، ويستطيعون في استشهادهم الى القول بان التفاعل النووي هو في الاساس والجوهر عملية تحول كيكي ، إذ بتحول جزء من المادة ذو كتلة وطاقة معينة الى ضوء وحرارة لها كتلة وطاقة تساوي كمية الطاقة التي كانت مخزنة في الكتلة قبل التحول .

واخيراً يستشهدون بقول اينشتاين القائل بان الكتلة هي حالة موقته للطاقة ، وان الطاقة هي حالة وقنية للكتلة ، وان الطاقة والكتلة غير قابلتين للانفصال او الفناء .

أضف الى ذلك ان الماركسيين على حد تعبير انكلاز لا يمكن ان يتصوروا المادة دون حركة (طاقة) ، كما وانه لا يمكن ايضاً تصور الحركة (الطاقة) دون مادة ، وهم يرون في الكتلة قياساً للسكون (القصور الذاتي) (Inertia) وفي الطاقة قياساً للحركة .

ويرى الماركسيون ان الكون في جموعه وحدة كاملة ، وانه لا يوجد هناك اي عنصر يمكن الا يتآثر بالعناصر الاخرى الموجودة في الكون ، وبهذا يقول انكلاز في رسالة له الى ماركس مؤرخة في ٣٠ ايار « مايو ١٨٧٣ » ما يلي :

« إن حركة جسم منعزل ليست موجودة ... وليس ثمة ما يقال في جسم خارج نطاق الحركة ، عديم كل صلة بالاجسام الاخرى » .

ويذهب الماركسيون الى تطبيق قانون التناقض على حركة الكواكب السيارة فيقولون بان حركة الكواكب السيارة ليست ممكنة الا بصراع الاضداد ويرهون على ذلك بأنه لو لم يكن ثمة جذب لاندفع الكوكب السيار في خط

مستقيم وفقاً للهcas ، كما ولو لم يكن هناك ثمة عطالة لاندفع الكوكب السيار في الاتجاه المعاكس ولسقوط عمودياً في الشمس . ويقولون ايضاً ان صراع الاصداد يتعدد حق من الذرة ميداناً له . ففي الذرة كا برهن الفيزيائيون طاقات جاذبة واخرى طاردة ، ومن ثم يقرر الماركسيون بان المادة خالدة في الزمان وهي غير محدودة بمكان ، كما وانها منبع كل حركة ومنبع التبدل والتغير ، والجوهر في الانتقال من الكثافة الى الكثافة . وهي بالتالي لم تخلق ولا يمكن ان تفنى او تبادل ، وان جميع التحولات التي تحدث في الكون الامتنادي ، هي بثابة تحول لامتناه تحول مختلف انواع المادة التي هي حركة دائمة .

أضف الى ذلك ان المادية الديالكتيكية على طرفي نقيف الفلسفة الميلوزوية (Hylozoism) هذه الفلسفة التي تقول بأن لكل نوع من انواع المادة خصائص الحياة والحسنة والفكر ، إذ تقول المادية الديالكتيكية ان الحياة والحسنة والفكر لا تظهر في المادة الا في مراحل تطور راقية جداً من « تعصوب » (Organism) المادة . كما وان المادية الديالكتيكية على خلاف جوهري « الآلة » ، إذ ان « الآلة » تعتبر جميع التبدلات الكثافية مجردة انتقالات في المكان ، بينما ترى المادية الديالكتيكية ان « الآلة » ليست سوى شكل للصيرورة الكونية .

وتعارض المادية الديالكتيكية النظرية الهيكلية القائلة بان الفكر « او الفكرة » (Idea) هي شيء منفصل عن العالم ، وان الفكر متقدم على الطبيعة ، اذ ترى المادية الديالكتيكية انه لا يمكن ابداً فصل الفكر عن المادة المفكرة ، كما وان تقدم الطبيعة على الفكر أمرٌ « حقيق » ، أضف الى ذلك ان العقل ذاته ليس سوى نتاج المادة الاعلى ، وبذلك يقول فريدريك انكلز في كتابه « لو دفيع فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية » ما يلي :

« ان العالم المادي الذي تدركه حواسنا ، والذي ننتهي اليه نحن انفسنا ، هو الواقع الوحيد ، اما ادراكنا وفكرنا فيها ، منها ظهر ارفيعين ساميين ، ليس سوى نتاج مادي جسدي هو الدماغ ... إن المادة ليست من نتاج العقل ، بل

ان العقل نفسه ليس سوى نتاج المادة الاعلى .

وتقول المادية الديالكتيكية ردأ على فلسفة هيغل إنه من المستحيل أن تسبق فكرة ما، عن شيء ما، عن وجود هذا الشيء، إذ ان الفكر عن الشيء هذا تكون أبداً لاحقة، لا سابقة . فان الواقع على حد تعبير ماركس وانكلز ليس هو الشكل الحادثي للفكرة ، بل ان الفكرة هي انعكاس للحركة الواقعية المنقولة الى الدماغ البشري والمستقرة فيه . لذلك ترى المادية الديالكتيكية ان الكون ليس من نتاج فكر ازلي أبدي ، بل انما هو نتاج المادة المتحركة . ولهذا يعتبر ماركس ان كل شيء مقلوب رأساً على عقب في فلسفة هيغل التي تعتبر «الفكرة» سابقة لوجود الكون .

وتعارض المادية الديالكتيكية النظرة المثالية التي تقول بأنه ليس من الممكن ان نعرف العالم «والأشياء بذاتها» وتقول بأنه من الممكن لنا ان نكتشف عن طريق العمل والعلم والتجربة قوانين العالم والكون ، وبذلك يقول انكلز في كتابه «لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية» ما يلي :

«إن أعظم رد حاسم لهذه النزعة الفلسفية (عدم إمكان معرفة العالم والأشياء بذاتها) ولكل نزعة أخرى غيرها، هو العمل، وعلى الأخص التجربة والصناعة» ، فإذا استطعنا أن نبرهن على صحة فهمنا لحدث طبيعي بخلق هذا الحادث بانفسنا ، وباحتداته بمساعدة شروطه ، وباستخدامه فوق كل ذلك في سبيل أغراضنا ، ففي ذلك القضاء على الشيء بذاته » .

ط — أخلاقية المادية الديالكتيكية:

ترى المادية الديالكتيكية ان القيم الأخلاقية في مختلف المذاهب الأخلاقية ، اغا تتبع اولاً واخيراً من الظروف الاقتصادية الناجمة عن مختلف الانظمة

الاقتصادية التي عرفها المجتمع البشري . فلكل نظام اقتصادي مذهب اخلاقي خاص به ، وهذا المذهب يرمي الى تدعيم الكيان السياسي والاجتماعي للنظام الاقتصادي القائم ، فعلى الباحث على حد تعبير انكلز ، إذا ما اراد ان يتعرف على التحولات والتغيرات في شق وجوها منها الاخلاقية ، لا يبحث عن اسبابها في عقول الناس او في سعيهم وراء الحق والعدل الازلين ، وانما عليه ان يبحث في اقتصاديات العصر الذي يعنيه ، وفي التغيرات التي تطرأ على اسلوب الانتاج والتبادل .

لذلك فان المادية الديالكتيكية ترى ان لكل عصر يسوده ، اسلوب معين من اساليب الانتاج ، مذهب اخلاقي خاص به ، فلنظام الاقطاع مذهب ، وللنظام الرأسمالي مذهب هو الآخر ، وبالتالي للنظام الشيوعي مذهب اخلاقي خاص به . وترى المادية الديالكتيكية ان الفضائل تنبع من نوع واحد هو الاشتراكية المتطرفة الى شيوعية ، اذ أنه في المجتمع الاشتراكي ، فالشيوعي ، تتحقق اهم الفضائل الممثلة بعدم استغلال الانسان للانسان ، وعدم استعباد طبقة اجتماعية لختلف الطبقات الاجتماعية الأخرى ، وتوطيد حق الانسان في الحياة لا بوصفه يقدم للمجتمع خدمات ثاقفة بل بوصفه انساناً . وترى الماركسية ان الانسان يكتسب وجدانه وضميره اكتساباً ، وذلك اثناء تعامله والطبيعة ، اذ ان معيشة الانسان الاجتماعية هي وحدتها التي تحدد على حد تعبير كارل ماركس ادراكه وأحساسه ، وهي التي تخلق فيه الضمير والوجدان .

ولما كانت المادية الديالكتيكية تؤمن بالحركة ، وتؤمن بان المجتمع في حالة حركة دائمة وفي حالة نمو وتطور دائم ، لذلك تؤمن ايضاً بان المفاهيم الاخلاقية هي ايضاً في حالة تطور دائم ، غير ان هذا التطور وفق قانون العبور من الكببة الى الكيفية ، هو تطور ثوري يتحقق بقفزات تاريخية ، كذلك فان المذاهب الاخلاقية تخضع لقوانين الديالكتيك الثلاثة ، فالفضائل التي تعتبر فضائل في عصر معين يسوده اسلوب انتاج معين ، تصبح النقيس في عصر يليه يسوده اسلوب مقاير لسابقه من المصور وهكذا دواليك ...

ي — المادية التاريخية :

ان المادية التاريخية هي علم متفرع من المادية الديالكتيكية وهو يختص بشرح وايضاح قوانين الديالكتيك التي تحكم وتوجه تطور المجتمعات وترسم للتاريخ خط سيره . وترى المادية التاريخية في التاريخ عنصراً ابدياً الحركة وهو — اي التاريخ — قصة الانسان الملحق لفسياته منذ فجر التاريخ حتى عصرها هذا . كما وانها ترى بأن انتصار البروليتاريا وتحقيق الدولة الاشتراكية ومن ثم تمجيد المجتمع الشيوعي امر محتوم يفرضه التطور والتحولات الكيفية التي تطأ على اساليب الانتاج وتبادله .

وهنا قد يقول قائل: إذا كانت المادية التاريخية تؤمن بان التناقض هو اساسها وجوهرها، وان هذا التناقض سيجعل تحقيق سيادة البروليتاريا امراً أكيداً، فلماذا اذن تنشأ الاحزاب الشيوعية وتمارس نشاطاتها؟

وعلى هذا السؤال يجيب كارل ماركس في ندوة « لفلسفة الحق » « لميفل » بان النظرية تصبح قوة مادية حالما تنفذ إلى اذهان الجماهير وقلوبها ، لذلك يرى الماركسيون ان مهمتهم تتحصر في حشد وتحشيد الجماهير وراء الاهداف الثورية بغية الامراع في تحقيق المجتمع الشيوعي ، وذلك لأن النظرية الماركسيّة لا ترى في التطور تتابعاً آلياً ، او نحوه رتيباً ، بل انما ترى في التطور قفزات ثورية تاريخية يفرضها قانون العبور من الكمية الى الكيفية . ولقد دلت تجربة استيلاء الماركسيين على السلطة في الاتحاد السوفيافي ، ان هذه القفزات الثورية التي وان جاءت غير مطابقة لحرفية قانون العبور من الكمية الى الكيفية ، اثروا البالغ في قطع الاشواط الطويلة نحو الاشتراكية ومن ثم تمجيد المجتمع الشيوعي .

ولكن حسب مفهوم قانون العبور من الكمية الى الكيفية يتضح لنا اقامة ان الدولة والمجتمع يعبران من المجتمع ذي الدولة الرأسمالية الى المجتمع ذي الدولة الاشتراكية ، وان طريق الرأسمالية وبلوغ الرأسمالية ذروة احتمالها ، هو

المرحلة المختومة لتحقق الانتقال والتحول الكيفيين ، وهذا ما يعني انه كانت يتوجب على روسيا القيصرية التي كان يسودها نظام اقطاعي وعلى الصين التي لم تكن حالها مختلفاً كثيراً عن حال روسيا القيصرية، ان تمر في المجتمع ذي النظام الرأسمالي اولاً، ومن ثم تفزان قفزة ثورية الى المجتمع ذي الدولة الاشتراكية . قد يقول القارئ: ان قانون العبور من الكمية الى الكيفية ، يجب ان يكون قادر المعمول في بلدان بلغت الذروة في التنظيم والانتاج الرأسماليين كالولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا والمانيا وبليجيكا وغيرها من البلدان الرأسمالية ، فلماذا إذن لم تتحول المجتمعات في البلدان الآتية الى مجتمعات ذات انظمة اشتراكية ، وذلك طالما ان المادية الديالكتيكية التي تؤمن بالتناقض مولد الحركة والتطور ذي القفزات الثورية تقول بهذا ؟

ثم قد يذهب الآخرون الى القول متسائلين عن الاسباب التي تدعو الاتحاد السوفيaticي للمناداة بفلسفة التعايش السلمي بين النظمتين الرأسمالية « والاشتراعي » (اذا جاز لي استعمال كلمة اشتراكيي وذلك لأن النظام في الاتحاد السوفيaticي يستهدف تحقيق الاشتراكية ولم يصبح اشتراكيأ بعد) .

فهل من الممكن اذن قيام تعايش سلمي بين النظمتين ، ونحن نرى المادية الديالكتيكية من فلسفية و تاريخية تقول بالاستحالة المطلقة مثل هذا التعايش ، إذ أنها ترى ان النظام الاشتراكي لا يمكن ان يقوم الا على انقاض النظام الرأسمالي الذي هو مرحلة سابقة و مختومة للاشتراعية .

وهنا قد يقرر بعض القراء ان قانون العبور من الكمية الى الكيفية والذي هو حجر الزاوية في المادية الديالكتيكية هو قانون خاطئ بدليل ان الماركسية قد انتصرت في بلدان اقطاعيين هما الاتحاد السوفيaticي والصين ، وفشلت في بلدان اخرى ، كان من المتوجب على النظرية الماركسية ان تنظر فيها ، وأعني بهذه البلدان ، بلداناً بلغ فيها التنظيم والانتاج الرأساليات الذروة ؟ ان الشيوعيين يحيطون على هذه الاسئلة الخطيرة قائلين بان قانون العبور من الكمية الى الكيفية ليس بخاطئ ابداً ، بل إنما هو قانون حديدي كان ولا يزال احد

القوانين الهامة التي تنظم مسیر التاریخ و مجراءه .

وهم يوافقون القارئ على ان طبيعة النظام الذي كان يسود روسيا القيصرية والصين ، كانت اقطاعية في جوهرها ، وان الثورة البلشفية التي نشبت في هذين القطرين ، اثما نشبت والرأسمالية لما تزل في الدور الجنيني في كل من الاتحاد السوفيتي والصين الشعبية . وذلك لأن الصناعة التي هي أهم مظاهر الرأسمالية ، كانت حق فشوب تينك الثورتين ، في مرحلة جد بدائية ، لهذا فإن الاقطاعيين من كبار ملوك وبنبلاء هم الذين كانوا يسيطرون على مقدرات الامور في البلدين المذكورين آنفًا ، وكان النظام الاقطاعي في الصين وروسيا القيصرية قد بلغ درجة من الانحلال ، أصبح بقاوه معها امراً مستحيلاً . ولما لم يكن هناك آنذاك في روسيا القيصرية ، او الصين ، من طبقة برجوازية كبيرة ، او متوسطة ، وذات شأن في المجتمع ، وفي ميدانه الاقتصادي والسياسي ، ولما كانت هناك آنذاك قوى رأسالية متقدمة (Advanced) تحارب التصنيع في كل من الصين وروسيا القيصرية ، وتبذل كل جهد للгиولة دون صدوره هذين البلدين منافسين لها ، ولما كان وعي الجاهير في القرن العشرين اسرع استجابة للحركات الثورية ، هذه الاسباب كلها انتصرت النظرية الماركسية في بلدين يسودهما نظام طابعه الاقطاع .

ولكن هل عبر هذان البلدان الى المجتمع الاشتراكي ؟ وهل ألغيت مرحلة
الرأسمالية ؟ وهل طرأ اي تعديل على كيفية المجتمع ؟

ان الجواب على السؤال الاول هو ان البلدين المذكورين لم يعبرا الى المجتمع الاشتراكي بعد بل انها في الطريق اليه وذلك بسبب تسلم البروليتاريا دفة الحكم في البلدين المذكورين .

أما الجواب على السؤال الثاني فهو أن مرحلة الرأسالية لم تبلغ لأن الفاعل يعارض قانون العبور من الكمية إلى الكيفية، كما وإن الفاعل يجعل تحقيق المجتمع الاشتراكي أمراً مستحيلاً، أما ما حدث ويحدث في الاتحاد السوفيتي الآن فاما هو تجميد للرأسمالية بكمال معاناتها، ولكن هذه الرأسالية ليست رأسالية

ذات صفة فردية بل إنها هي رأسالية ذات صفة جماعية ، إنها رأسالية الدولة التي تستهدف إنماء القوى الانتاجية في الاتحاد السوفيatic وخلق صناعة قوية . كلنا نعلم ان كارل ماركس يتهم الرأساليين باللصوصية والسرقة ، ويقول بأنهم يسرقون «فائض القيمة» الذي هو من حق العمال ليُنموا بواسطته ثرواتهم ، إذن فمن اهم مظاهر الرأسالية هو ان «فائض القيمة» الذي هو حق مشروع للعمال يذهب الى غيرهم ، وهذا هو ما يحدث الان تماماً في الاتحاد السوفيatic وفي الصين إلى حد ما . «فائض القيمة» في الاتحاد السوفيatic لا يذهب الى العمال بل إنما يذهب الى الدولة ، ولكن مع هذا يبقى النظام في الاتحاد السوفيatic ذا محتوى اشتراكي ، وذلك بسبب ان ما تأخذه الدولة من «فائض قيمة» الذي هو حق مشروع للعمال لا تبنته الدولة كما يبنته الرأسماليون ، بل إنما تعيد توظيفه في المشروعات الإنمائية بغية زيادة القوى الانتاجية في الاتحاد السوفيatic سعياً وراء تحقيق المجتمع الاشتراكي فالمجتمع الشيوعي . إننا لا شك نذكر الخلاف الذي حدث بين خروشوف ومالن Kov ، لقد كان هذا الخلاف يدور حول عما اذا كان يجب ان تعطى الأفضلية في التوسيع للصناعات الاستهلاكية المنتجة للسلع الاستهلاكية ذات الدورة الواحدة ، ام للصناعات الثقيلة المنتجة للسلع الرأسالية ، لقد كان الخلاف بالأحرى يدور حول عما إذا كان قد آن للدولة أن تعيد «فائض القيمة» الى العمال ، بغية رفع المستوى المعاشي لهم ، وكان خروشوف يقول بضرورة متابعة اعطاء الأفضلية للتوسيع للصناعات الثقيلة ، أو بمعنى آخر بضرورة متابعة الدولة الاستيلاء على «فائض القيمة» ... وانتصر خروشوف اخيراً بسبب ما يسود العالم من قوت ، وبسبب ممارسة الدول العظمى لسياسة القوة .

ما ورد يتضح لنا ان قانون العبور من الكمية الى الكيفية ليس بقانون خاطيء ، فالاتحاد السوفيatic الذي شيد على انقضاض نظام اقطاعي قيصري لا يزال حتى الان يمر في مرحلة النظام الرأسالي ، غير أن هذا النظام مختلف كما قلت آنفأ عن الانظمة الرأسالية الاخرى ، إذ انه نظام رأسالية الدولة ذو الصفة الجماعية ، وليس بالنظام الرأسالي الفردي ، لذلك فان عبور الاتحاد السوفيatic الى النظام الاشتراكي لن يكون عبرواً ثوررياً او قفزاً ثوررياً بل

سيكون نهاية مرحلة أو دخولاً طبيعياً، وبتعبير آخر، التبدل « الكيفي »، الذي يحييه عن التطور « الكمي » لن يحيي، بسبب سيطرة البروليتاريا على مقاليد الحكم في الاتحاد السوفيتي نتيجة لقفزة تاريخية، بل إنما سيحيي خطوة عادلة و مباشرة في طريق المجتمع السوفيتي إلى تجسيد المجتمع الشيوعي، أما في بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية وغيرها من البلدان التي بلغت مرتبة رفيعة في التنظيم والانتاج الرأسماليين، وأعني بهذه البلدان، البلدان المستعمرة منها، فـان الاستعمار وأمتلك المستعمرات قد أجل إلى أمد تنفيذ قانون العبور من الكمية إلى الكيفية . كما وان الدولة في البلدان المذكورة أخذت تقوم بهذيب الرأسمالية وتأديبها عن طريق ضريبة الدخل ذات النسبة المرتفعة ، وتتدخل في توجيه الاقتصاد، غير ان هذه الاجراءات جمعاً، لن تفلح في المدى الطويل ، وذلك بسبب التناقضات التي تكتنف كيان التنظيم الرأسالي ، والتي تتجلّى في الازمات الاقتصادية الدورية الممثلة بالكساد والبطالة ، حيث لا تجد هذه الازمات من وسيلة لانفراجها إلا في الحرب .

قلنا في مطلع بحثنا في المادية التاريخية أنها علم متفرع من المادية الديالكتيكية يختص بشرح وإيضاح قوانين الديالكتيك التي تحكم وتوجه تطور المجتمعات ، وترسم للتاريخ خط سيره . ويفسر ماركس وإنكلز المادية التاريخية في مقدمة « البيان الشيوعي » فيقولان :

« إن الانتاج الاقتصادي والبناء الاجتماعي الذي ينتج بالضرورة ، يؤلفان في كل عهد تاريخي أساس التاريخ السياسي والفكري لهذا العهد ... وبالنالي ، فكل التاريخ (منذ الخلل الملكية المشاعية الابتدائية) هو تاريخ نضال الطبقات ، نضال بين طبقات مستمرة ، وطبقات مستثمرة ، بين طبقات مسودة وطبقات سائدة ، في مختلف مراحل تطورها الاجتماعي . وقد بلغ هذا النضال في الوقت الحاضر مرحلة اصبحت فيها الطبقة المستثمرة المضطهدة (البروليتاريا) لا تستطيع ان تتحرر من الطبقة التي تستثمرها وتضطهدتها (البرجوازية) دون أن تحرر في الوقت نفسه والى الأبد المجتمع باسره من الاستئثار ومن الاضطهاد ، ومن نضال الطبقات

الطبقات لها ويقول ماركس في كتابه «بُوُس الفلسفة» ما يلي :

«إن العلاقات الاجتماعية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالقوى المنتجة»، وعندما يحصل الناس على قوى منتجة جديدة يغيرون أسلوبهم في الانتاج، وبنطاقهم أسلوب الانتاج، أي بتفير وسائل كسب معاشهم، يغيرون كل علاقاتهم الاجتماعية، فطاحونة المروء قد تأثر على أن المجتمع هو مجتمع اقطاعي، والطاحونة البخارية، كذلك على أن المجتمع هو مجتمع رأسالي، وهكذا يتضح لنا مما ورد أن التاريخ هو قصة تطور الانتاج، وأن السياسة هي على حد تعبير «سان سيمون» ليست سوى علم الانتاج، وأن الاقتصاد هو العامل المتفوق على السياسة، وهو الذي يرسم لها خط سيرها.

ولنسع الآن إلى تطبيق قوانين الديالكتيك الثلاثة (وحدة المتناقضات، العبور من الكمية إلى الكيفية، نفي النفي) على واقع التطور التاريخي.

تقول الماركسية، إن النظام الرأسمالي قد ألغى المتناقضات في المجتمع الاقطاعي، فاصبح بذلك النقيض *Anithese* لنظام الاقطاع الذي هو القضية (*These*)، غير أن هذا النظام (الرأسي) لم يوفق في التخلص من آثاره الاجتماعية، فاكتنفه لذلك متناقضات أخرى، وستؤدي هذه المتناقضات بالتالي إلى هدم النظام الرأسمالي وإنهياره وقيام النظام الاشتراكي فالشيوعي الذي يُؤلف المركب *Synthese* والذي سينفي القضية والنقيض معاً.

واخيراً تقول الماركسية إن دولة البروليتاريا عندما تبلغ آخر مراحل تطور الاشتراكية تدخل في الشيوعية حيث تفنى الدولة وتزول. أما ظواهر هذه المرحلة فهي :

- ١ - زوال الطبقات زواياً، وزوال بقائها وعوالقها وامتداداتها.
- ٢ - تطور هائل ونمو عظيم في القوى المنتجة.
- ٣ - تخطي تقسم العمل الموزع بين اعمال مادية واعمال عقلية.
- ٤ - سعادة الإنسان الحر في مجتمع حر».

وقد وصف فريدرريك انكلز فناء الدولة في المجتمع الشيوعي وصفاً دقيقاً في

كتابه المعروف باسم « ضد يوجين دو هرنغ » وذلك من الصفحة ٣٦٠-٣٦٢ ، وقد جاء في وصفه ما يلي :

« تستولي البروليتاريا على سلطة الدولة وتحول وسائل الانتاج باديء ذي بدء ، الى ملكية الدولة ، ولكنها بذلك تقضي على نفسها بصفتها بروليتاريا ، تقضي علىسائر الفوارق الطبيعية ، وسائر التضادات الطبقية ، وتقضى وبالتالي على الدولة بصفتها دولة ... ولكن الدولة إذ تصير اخيراً الممثل الفعلي للمجتمع باسره فانها تصبح هي نفسها زائدة عدية النفع ... ان الدولة لم تلغ انها تقضى . »

الصَّمْبُونِيَّةُ

هل من فرق بين اليهودي والصهيوني — المسيحية ثورة على
اليهودية — الحركة الصهيونية والاستعمار في العالم العربي

١ - أهناك فرق بين اليهودي والصهيوني؟

تحاول الاوساط اليهودية ان تشيع وتذيع بأن هناك خلافاً جوهرياً بين بين اليهودي والصهيوني، والحق يقال أنه لا فرق مطلقاً بين اليهودي والصهيوني، فالصهيوني هو ذاك الذي يطبق تعاليم التوراة، ويسير وفقاً لما جاء في التلمود، ولنقابل الآن بين تصريحات بعض المتطرفين من الصهيونيين امثال بن غوريون والارهابي مناحيم زعيم عصابة الارجوان وغيرهما، وبين ما جاء في التوراة: قال بن غوريون في تصريح له في القدس :

«إن خريطة فلسطين الحالية هي خريطة الانتداب، غير أن للشعب اليهودي خريطة أخرى يجب على شبابنا ورجالنا أن يتحققوها، وهي ما نصت عليه التوراة ما بين دجلة والفرات».

وقال «إريه ألتان» في خطاب له القاء في البرلمان اليهودي بتاريخ ١٧ آذار ١٩٥٢ ما يلي :

«من واجبنا ان نفهم العالم بصدق ان غاية اسرائيل في حشدها اليهود من كل قطر وجعلهم فيها بسرعة وكثافة، هي ان نخلق لنا حدوداً ما بين العراق والسويس».

وذكر «بنتوبيتش» الزعيم الصهيوني في كتابه «فلسطين واليهود» ما يلي : «لا حاجة ان تكون فلسطين المستقبل محدودة بحدودها التاريخية، ففي امكان المدينة اليهودية الامتداد الى جميع البلاد التي وعد بها الشعب المختار في التوراة»

وهي من البحر المتوسط حتى الفرات ومن لبنان حتى النيل .
والقى الارهابي المعروف مناحيم بيجن في شهر كانون الاول عام ١٩٤٩ خطاباً في نيويورك جاء فيه :

« يجب ان نذكر كلنا ان القتال لم ينته بعد ، واننا سنواصل الحرب باساليب جديدة ، واسلحة جديدة حتى يتم تحرير اسرائيل بكاملها ، وتسقط البلاد العربية الباقية في ايدينا ، ويعود جميع افراد شعبنا الى الوطن الموعود ، وما على العرب « المتواشين » الا ان يرجعوا الى الصحراء التي جاءوا منها ، فهم لا يستحقون الحياة في غيرها .»

واخيراً كما لا شك ان يعرف القارئ الكريم ان العبارة التالية قد حفرت فوق باب البرلمان اليهودي : « حدودك يا اسرائيل من الفرات إلى النيل » .
والآن لنر ما تقوله التوراة :

جاء في الاصحاح الخامس عشر من سفر التكوين وفي العدد ١٨ - ٢١ ما يلي :
« وفي ذلك اليوم قطع رب مع أبرام ميثاقاً قائلاً : لنسلكَ اعطي هذه الأرض من نهر مصر الى النهر الكبير (نهر الفرات) .

وجاء في الاصحاح الاول من سفر يشوع عدد ١ ، ٣ ، ٤ ، ٧ ما يلي :
« ان رب كل يشعو بن نون خادم موسى قائلاً : « كل موضع تدوسه بطون اقدامكم لكم اعطيته ، كما كلفت موسى » من البرية ولبنان هذا الى النهر الكبير نهر الفرات جميع ارض الحثيين ، والى البحر الكبير نحو مغرب الشمس تكون تخومكم ». من الامثلة الواردة اعلاه يتضح ان الصهيوني هو اليهودي الذي يطبق تعاليم دينه ، وانه من المفاجأة ان تفرق بين اليهودي والصهيوني فيما يتعلق بالاهداف التوسعية الحالية لاسرائيل ، طالما ان التوراة ذاتها تنص او بالاحرى تطالب بقيام اليهود بمثل هذا التوسيع .

والآن قد يتساءل القارئ ويقول إن الصهيوني كما تبين لنا في فلسطين نذل غادر هجي الطبع ببربه عندما يكون قوياً لا يرحم طفلاً ولا يبقي على كهل او امرأة ؟ ومذبحة دير ياسين وقبية وغيرهما لتشهد بالجرائم البربرية التي اقترفها

الصهيونيون ، فهل اليهودي هو ايضا كذلك ؟
واما اترك للتوراة ان تجيب على هذا السؤال .

فلقد ورد في سفر الثنية وفي الاصحاح العشرين والعدد ١٠ - ٣٣ ما يلي :
« حين تقارب من مدينة لكي تحرارها استدعها الى الصلح » ، فان اجابتك إلى
الصلح وفتحت لك فكل الشعوب الموجودة فيها يكون لك للتسخير
ويستعبد لك ، وان لم تسللك وعملت معك حرباً فحاصرها وادا دفعها رب
املك الى يدك ، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والاطفال
والبهائم وكل ما في المدينة ، كل غنيمتها ، فتقنهم لنفسك ، وتأكل غنيمة اعدائك
التي اعطيك رب امك ... هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي
من مدن هولاء الامم هنا واما مدن هولاء الشعوب التي يعطيك رب
ليست امك نصيبك فلا تستبق منها نسمة واحدة .

وعندما نشهد جموع اخواننا اللاجئين العرب والمعائدين قريباً الى بلادهم
لنذكر ما ورد في سفر « الثنية » وفي الاصحاح الثالث والثلاثين والعدد
٥٦ - ٥٥

« ان لم تطردوا سكان الارض من امامكم يكون الذين تستبقون منهم
اشواكاً في اعينكم ، ومناخس في جوانبكم ويضايقونكم على الارض التي انت
ساكنون فيها » .

وجاء في التلمود ما يلي :
« اقتل الصالح من غير الاسرائيليين ، اذا وقع احد الوثنيين في حفرة يلزمك
ان تسدتها بحجر ! »

ويقول التلمود ايضاً :
« من العدل ان يقتل اليهودي كل كافر ، لأن من يسفك دم الكافر يقرب
قربانا » ، فهل نستطيع بعد الامثلة التي اوردتها وهي غير من فيض ان نفرق
بين اليهودي والصهيوني ، والحق ان الانسان لا يستطيع ان يصدق عينيه وهو
يقرأ مذهب امثال هذه الفقرات التي تحض على العداوة واقتراف الاعمال والجرائم

ضد الانسانية، ومن ثم يعتبر اليهودية ديناً او بالاحرى احد الاديان الثلاثة الكبرى ، فاليهودية كما ارى هي دستور ومنهج للاستعباد والعدوان ، واليهودي كما ثبت تاريخياً وخاصة في فلسطين انه غير قادر على اعطاء الحرية للآخرين . وعجز عن تلقیها والاستجابة الى روحها السمححة الانسانية ، وذلك بسبب أن هينه يحظى على كراهية كل انسان غير يهودي ، واحتقار كل أمة غير الامة اليهودية . لهذا يتوجب علينا - ونحن نمر في مرحلة تاريخية خطيرة من مراحل تبلورنا القومي ، وتجابه في الوقت نفسه خطر شعب مفترض يحرضه دينه ، نعم دينه على العداون - ألا نفرق بين اليهودي والصهيوني ، إذ أن الصهيوني هو يهودي « متدين » يطبق تعاليم وشرائع اغرب دين عرفه الضمير الانساني .

ب - لماذا اضطهد ويضطهد وسيضطهد اليهود ؟

لم يعرف شعب من الشعوب او امة من الامم الاضطهادات قدر ما عرفها الشعب اليهودي . فتاريخ اليهود هو تاريخ ثورة الانسانية على اليهودية ، فعندما تعتبر امة من الامم أنها هي شعب اللهختار ، وعندما يقرر « التلمود » قائلاً : « لليهود أحب الى الله من الملائكة ، وهم من عنصر الله كالولد من عنصر ابيه فمن يصف اليهودي كمن يصف الله » . أو عندما يقول « تلمود اورشليم » في الصفحة ٩٤ منه : « ان النطفة الخلوقية منها باقي الشعوب الخارجة عن الدين اليهودي هي نطفة حسان » .

او عندما يقول « التلمود » : « لو لم يخلق الله اليهود لانعدمت البركة من الارض ، ولما خلقت الامطار والشمس ، ولما امكن باقي المخلوقات ان تعيش ، والفرق بين درجة الانسان والحيوان

هو بقدر الفرق بين اليهودي وباقى الاميين .
او عندما يقول الرأي (المعلم) موسى بن نعيمان والحاخام « ريشا » في
تفسير العبارة الواردة في سفر الخروج والقائلة :
« ان الاعياد المقدسة لم تجعل للاجانب والكلاب » اقول عندما يقول هذان
القطبان الدينيان في تفسيرها :

« إن الكلب افضل من الاجنبي لأنه مصرح لليهودي في الاعياد ان يطعم
الكلب ، وليس له ان يطعم الاجنبي او يعطيه لها بل يعطيه للكلب ».
او عندما يقول الرأي « مناحم » :

« ايها اليهود انكم من بني البشر لأن ارواحكم مصدرها روح الله ، واما باقي
الأمم فليس كذلك لأن ارواحهم مصدرها الروح النجسة ».
او عندما يقول الحاخام « أريل » :

« ان الخارجين عن دين اليهود خنازير نجسة ، و اذا كان الاجنبي قد خلق على
هيئة انسان ، فما ذلك إلا ليكون لائقاً لخدمة اليهود الذين خلقت الدنيا لأجلهم ».
او عندما تقول التوراة ، وهي بثابة الانجيل عند اخواننا المسيحيين والقرآن
عندنا عشر المسلمين ، في الاصحاح السابع من سفر الثانية عدد ٢١ - ٢٤ :

« لا ترهب وجوههم لأن الرب أهلك في وسطك الله عظيم ومحظوظ ، ولكن
الرب أهلك يطرد الشعوب من امامك قليلاً قليلاً لا تستطيع ان تفنيهم
سريراً لئلا تكثر عليك وحوش البرية ، ويدفع اثرب أهلك امامك ، ويوقع
بهم اضطراباً عظيماً حتى يفنوا ويدفع ملوكيهم الى يدك فتتمحو اسمتهم من
تحت السماء ».

عندما يطلع الانسان على كل هذه الامور المفزعة الرهيبة الواردة في صلب
الدين اليهودي لا يسأل عندئذ لماذا اضطهد ويفضطهد اليهود ؟ اما يتساءل عاجباً
مذهولاً لماذا لا يزال حتى اليوم على ظهر هذا الكوكب يهودي وييهودية ؟ اإذ ان
الديانة اليهودية تتنافى وابسط المبادئ الانسانية وقواعدها . وقد خلقت الديانة
اليهودية سبيكة كولوجية خاصة بالفره اليهودي ، وهذه السبيكة كولوجية تجعله ابداً فرداً

انعزاليًّا متعالياً على بقية الامم والشعوب ، وهو ان احتل او اختلط بغيره من الافراد غير اليهود فاما يقوم بمثل هذا الامر بغية استثمار واستغلال ذاك الفرد الذي خلقه الله على حد تعبير الحاخام « آريل » على شكل انسان كي يكون لائقاً لخدمة اليهودي . ففي اليهودية عنصر يناهض الاجتماع والمجتمع الانساني ، وهذا الغنصر هو الذي دفع سابقاً ويدفع حاضراً باليهود الى محاولة هدم كل مذهب اجتماعي او دين او نظام . فاليهود كانوا اول من نظم الحملات هدم الدين الاسلامي . ويقول الاستاذ محمد عبدالله عنان في كتابه « تاريخ الجمعيات السرية والحركات المدamaة » وفي الصفحة ٦١ منه ما يلي :

« ويرى بعض المفكرين المسلمين هذا الرأي فيما يتعلق بدعوات المدماة الاسلامية ، ولا سيما دعوة عبدالله بن ميمون التي اسفرت كارثة انساب اعظم حركات هدمها عرفاً الاسلام ، فيقولون ان اليهود هم الذين نظموا مقاومة الاسلام منذ ظهوره ، وحشدوا الدعاة لافساد تعاليمه ، وان ميمون بن ديسان وولده عبدالله كانوا يعملان على بث مبادئها السرية في الاحياء والمدن بتحريرهن وتعضيد من الدعاة اليهود » .

كما وان اليهود هم الذين كانوا وراء الجمعيات التي استهدفت هدم الدعوة المسيحية كجمعية الصليب الوردي ، وجمعية عبادة الشيطان والسحر الاسود ، وجمعية الالبيين (Albigeness) ، وخطة هذه الجماعة تستهدف بث دعوة فحواماً محاربة مبادئ الاعراف والسلطة الانضوائية تحت لواء الشيطان ، والشيطان في تعاليم هؤلاء هو خصم الله الذي يسيطر على جميع النظم الاجتماعية التي ترهقهم وتتصف بمحرياتهم ، وكان من شعائر هؤلاء ان يعقدوا اجتماعات يغرقون فيها بالفجور والخلاغة ، ويشتمنون المسيح ويبصرون على صليبه . كما وأنه كان لليهود الباع الطويل في السحر والشعوذة وقضايا السموم التي سادت اوروبا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ويقول فولتير في ذلك :

« كان اليهود هم الذين يلتقطون اليهود عادة في تأدية الشؤون السحرية ، وهذا الوهم القديم يرجع الى اسرار « الكابالا » التي يزعم اليهود انهم وحدهم يملكون اسرارها »

و كانت كاترين دي مدیتشي والمارشال دانكر وكثيرون غيرها يستخدمون اليهود من أجل هذا الامتياز ».

و قد لعبت الجمعية اليهودية المعروفة باسم « الكابالا » دوراً كبيراً في تغذية الحركات المدamaة في أوروبا، وقد أسس هذه الجمعية اليهودي المعروف باسم « اسحاق ابن سلمون لورا »، وكانت هذه الجمعية تعامل بالسحر والطلاسم وتضفي عليها نوعاً من الشعوذة الصوفية، وكانت تنتظم جمهرة غفيرة من علماء التلמוד، كما وان « تيوفراستوس فون هوهنهaim » المعروف باسم « بارسيليوس » الذي يعتبر الاب الروحي لجمعية « الصليب الوردي » قد استقى تعاليمه من جمعية « الكابالا »، وكان برسيليوس هذا يذكر مجدهاته على تركيب « الاكسير » الذي كان امنية العصر آنذاك . وقد وصف فولتير في قصته المشهورة « هنرياد » شعائر الجمعيات السرية التي تفرعت عن جمعية « الكابالا » اليهودية في قطع شعرية بلية منها :

« في شبح الليل تحت قبو مظلم
يسود الكون اجتباهم الدنس
وعلى ضوء مصابح سحري شاحب
بقيام هيكل دنس فوق قبر
وقد نظمت السيف فوق الجدران الحالكة
تفسم أطرافها في اوعية من الدم
هي آنية متذرة لخفاهم المرعب
وراهب هذا المعبد احد اولئك اليهود
الذين يفرون من اضطهاد الارض والناس كلهم
يحررون بؤsem العميق من جدار الى جدار
وقد ملأوا منذ بعيد كل الأمم
بطائفة عتيقة من الاساطير والخرافات ... »

هذه هي بعض « مايور » اليهود و « مفاحير اليهودية » التي اعلنت الحرب منذ نشأتها على جميع امم الارض وشعوبها ، وسارت في جميع خطواتها مدفوعة

بروح شريرة تستهدف تحطيم المجتمع الانساني وتدمير القيم الانسانية العليا، لذلك كان لزاماً على الشعوب ان تسليقظ في فترات من تاريخها لتؤدب هذه الشرذمة من اللا انسانين ، وبدلاً من ان يرعوي اليهود عن غيهم ويتخلوا عن اخلاقهم الافعزالية العدوانية كانوا يتمسكون بسلكם العدائي والتخربي ضد الشعوب والامم، وقد اوجدت الاوضطادات المتواتلة التي نزلت باليهود شعوراً « سادنيا » في قراره نفوسهم، شعور من يجد اللذة في الالم، ولكن في الم غيره من الناس . كما وأنتم فيهم موازع النعمة والانتقام من كل من على ظهر هذا الكوكب من امم وشعوب ، وشحدت فيهم الحب والدهاء والتلون ، وجعلت بالتالي تعاونهم او تعايشهم مع الأمم الأخرى امراً مستحيلاً، فاليهودي لا يستطيع ان يعيش الا مضطهداً او مضطهداً ، وسر ذلك كامن في دينه وفي تربيته الاجتماعية التي نظمتها مبادئ منحرفة لا انسانية ، لذلك فإنه لا خلاص للعالم طالما ان لليهود ولليهودية فيه أثراً ونفوذاً .

ج — المسيحية ثورة على اليهودية

إن المسيحية تمثل في جوهرها يقطة الضمير في الفرد الانسان وثورته على المادية اليهودية في عدوائها وانعزاليتها . فالمسيحية ، كما أرى ، لا تمثل ابداً تطوراً في اليهودية كما يقول بعض اللاهوتيين من اخواننا المسيحيين بل انها تمثل ثورة كاملة على مفاهيمها . لذلك فإنه لا يوجد اي ارتباط بين العهد الجديد والعهد القديم في الكتاب المقدس . فإذا تمعنا في العهد القديم وجدنا انه خال تماماً من الروح الانسانية التي نراها بارزة واضحة في الأنجيل الأربعة وفي رسائل بولس الرسول وغيره من الرسل ، كما واننا اذا قابلنا بين النظم الاجتماعية المسيحية والنظم الاجتماعية اليهودية يتضح لنا الفارق الجوهرى بينها : فاليهودية تقوم على العدوان والعنف

واحتقار الام و الشعوب ، بينما تقوم المسيحية على التسامح والمحبة والمساواة بين الام . واليهودية تلتقي بالسادية الرومانية ، فتقسم الام الى فئتين « شعب اللهختار » الذي هو الشعب اليهودي ، والوثنيين . بينما ترى المسيحية ان الشعوب واحدة امام الله عز وجل . ولقد كان للمسيحية الفضل الاكبر في هدم الامبراطورية الرومانية المنحلة ، اذ ان دعوتها الى المساواة الاجتماعية بين الافراد و انتهاجها في بادىء امرها نهجاً شيوعاً في طريقة معيشة الجماعات المسيحية ، حيث كان يعيش النبيل والعبد ، والفقير والغني مما قد هدم الفوارق الطبقية بين الطبقات ، هذه الفوارق التي كانت تشكل القاعدة الرئيسية للنظام الاجتماعي الروماني . أضف الى ذلك ان الديانة المسيحية ديانة مفتوحة الأبواب لجميع الأمم والشعوب ، في حين ان اليهودية ديانة مغلقة بحيث لا يمكن للمرء ان يصبح يهودياً إلا بالولادة . وقد حاولت اليهودية في بادىء امرها ان تسيطر على المسيحية ، وتختضنها ، اذ ان بطرس الرسول كان يرى ان لا يسمح ابداً لغير اليهودي ان يصبح مسيحيًا ، وان المسيح إنما جاء رسولاً الى الشعب اليهودي فقط ، غير ان بولس الرسول الذي يعتبر الشخصية المسيحية الاولى بعد السيد المسيح عارض هذا الرأي ، وحال دون تطبيقه معتقداً في ذلك على ما ورد في النجيل يوحنا الاصحاح الثالث والمعدد ١٦ - ١٨ والقاتل :

« لأنكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحد لكي لا يهلك كل من يؤمن به ، بل تكون له الحياة الأبدية ، لأنك لم يرسل ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم ، الذي يؤمن به لا يدان ، والذي لا يؤمن به قد دين لأنهم باسم ابن الله الوحد ». فما الله إذن في المسيحية هو إله للجميع بينما هو يؤمن في اليهودية إله لبني اسرائيل فقط . كما وحاول بطرس الرسول ان يفرض الختان على جميع من يدخل في المسيحية ، غير ان بولس الرسول وقف ضد بطرس الرسول في هذا الموضوع ايضاً حاولاً بذلك ان يقطع كل صلة تربط المسيحية باليهودية . أضف الى ذلك ان اليهودية تدعوا الى الكسب وجني المزاحي المادية ، وتبيح سرقة الاجانب والاغراب ، وبهذا يقول الراي (المعلم) راليو :

« سلط الله اليهودي على أموال باقي الامم ودمائهم » ويفسر « التلمود » هذه العبارة بما يلي :

« اذا سرق اولاد نوح - اي غير اليهود - شيئاً ولو كانت قيمته طفيفة جداً يستحقون الموت لأنهم قد خالفوا الوصايا التي اعطاماها الله لهم ، اما اليهود فصرح لهم ان يضروا الآمني لأنه جاء في الوصايا لا تسرق مال القريب ۱ وما دام موسى لم يكتب في الوصية لا تسرق مال الآمني فان سلب ماله لا يخالف الوصايا » .

على حين ان المسيحية دعوة مثالية تتنكر للهادىة وللمال تبتكر شديداً، وترى ان الحياة على الارض هي مرحلة اعداد وانتقال الى الحياة الثانية في السماء، وبذلك يقول المسيح جهاراً في الانجيل متى الاصحاح الثالث عشر عدده ۴۶ - ۴۴ « ايضاً يشبه ملوكوت السموات كنزاً مخفى في حقل وجده انسان فاختفاه ومن فرحة مضى وباع كل ما كان له واشترى ذلك الحقل ، ايضاً يشبه ملوكوت السموات تاجراً يطلب لآلى ه حسنة ، فلما وجد لؤلؤة واحدة كثيرة الثمن مضى وباع كل ما كان له واشتراها » .

و ايضاً يقول المسيح في الانجيل ذاته، وفي الاصحاح التاسع عشر مخاطباً الشاب الذي جاء يسأله عمما يفعل ليدخل ملوكوت السموات فيجيبه المسيح قائلاً : (عدد ۲۱) :

« إن أردت أن تكون كاماً فاذهب وبع املاكك واعطه الفقراء فيكون لك كنزاً في السماء، وتعال واتبعني ! »

وبتبدئ ثورة المسيحية على اليهودية في الاصحاح الثالث والعشرين من الانجيل متى ، وذلك عندما يعنف المسيح الكتبة والفرسانيين قائلاً : (عدد ۱۶، ۱۷، ۱۸) .

« ويل لكم ايها القادة العمييان القائلون من حلف بالهيكل فليس بشيء » ومن حلف بذهب الهيكل يلتزم ، ايها الجهل العمييان ايها اعظم : الذهب ام الهيكل الذي يقدس الذهب؟ ومن حلف بالذهب فليس بشيء ولكن من حلف بالقربان الذي عليه يلتزم » .

من كلام السيد المسيح تبدو ان النفعية هي التي توجه اليهودية وتسيطر عليها ؛ فالذهب كما يرى اليهود هو الذي يقدس الهيكل ، والقربان الموجود على المذبح هو ذو القيمة الحقيقة في نظر اليهود لا المذبح .

وجاءت المسيحية لتهدم ايضاً الفوارق بين الامم والشعوب وتقول بأنه ليس هناك شعوب طاهرة وآخرى نجسة ، بل ان هناك بني الانسان فقط ؛ ولقد بشر المسيح بهذه العقيدة الانسانية قولهً وعملاً . فلقد كان اليهود يعتبرون السامريين الساكدين في لواء السامرة من اعمال فلسطين قوماً اجانب « الجاسة » لا تجوز مخالطتهم ، ولا يجوز ابداً أن يأكل الانسان معهم . كما وان المرء حسب ايمان اليهودية يتدعس اذا ما شرب من آنائهم ، غير أن المسيح مخالطهم وامتدى الكثيرون منهم الى المسيحية . فلقد ورد في الاصحاح الرابع من الانجيل يوحنا عدد ٦ - ١٠ ما يلي :

« وكانت هناك بشر يعقوب ، فإذا كان يسوع قد تعب من السفر جلس هكذا على البئر ، وكان نحو الساعة السادسة فجاءت امرأة ل تستقي ماء فقال لها يسوع : اعطيني لأنشرب ا لأن تلاميذه كانوا قد مضوا الى المدينة « مدينة السامريين » ليبتاعوا طماماً ، فقالت له المرأة السامرية : كيف تطلب مني للشرب ؟ ا وانت يهودي وانا سامرية ! « لأن اليهود لا يعاملون السامريين » .

وورد في الاصحاح نفسه ومن الانجيل نفسه ومن العدد ٣٩ - ٤١ ما يلي :

« فآمن به من تلك المدينة كثيرون من السامريين بسبب كلام المرأة التي كانت تشهد أنه قال لي كل ما فعلت ، فلما جاء اليه السامريون سأله ان يكتب عندهم ، فكث هناك يومين فآمن به أكثر جداً بسبب كلامه .

وينص التلمود (سندين ٢٢ ، ٥٨) على ما يلي :

إذا ضرب امرأة بليها فالامي يستحق الموت ، اما المسيحية فجاءت لتقول عكس ذلك تماماً إذ ورد في الانجيل لوقا الاصحاح السادس عدد ٢٧ - ٢٩ ما يلي :

« لكنني اقول لكم ايها السامعون أحبوا اعداءكم ، أحسنوا الى مبغضيكم !

بار كوا لاغنيكم، وصلوا لاجل الذين يسيئون اليكم، من ضربك على خدك فأعرض له الآخر ايضاً، ومن اخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك ايضاً».

ويتضح مما ورد أعلاه ان المهاجمان غاندي قد استوحى فلسفته الخاصة بالمقاومة السلبية «Passive Resistance» من الفقرة الآنفة الذكر . لذلك فان الكثيرين من رجال الاهوت المسيحي يعتبرون المهاجمان غاندي في جوهره مسيحيين صادقاً في مسيحيته .

ومن الغريب ان اليهودية التي لا تعرف في حياتها سوى الخداع والدجل والتضليل قد هفعت باحد كتاب ركتاب القصة فيها المدعو «شالوم آش» الى وضع قصتين طويلتين الاولى بعنوان «الناصري»، وتستهدف هذه القصة تبرئة الشعب اليهودي من جريمة صلب المسيح وحصرها برئيس الكهنة «حنان» وهائلته ، ثم تغالط التاريخ لتقول بان «بيلاطس البنطي» استاء من تدخل زوجته في امر السيد المسيح ، لذلك استجواب الى رغبة زمرة الشقي «برباس» فوافق على اعدامه !

اما القصة الثانية فهي بعنوان «الرسول» وهدف الكاتب من وراء وضعها الى تبيان الصلة التي تربط المسيحية باليهودية ، واظهار الخدمات التي ادتها اليهودية للمسيحية في مراحلها الاولى ، اذ يظهر «شالوم آش» ان اليهودية وضعت جميع معابدها تحت قصرف تلاميذ المسيح ليشرروا من على منابرها بالعقيدة المسيحية .

د - اليهودية في خدمة رأس المال

لا يسعني هنا الا ان أبدأ بمحني هذا بقول اليهودي الشاعر على اليهودية والنفعية والاستغلال: «كارل ماركس» هذا القول الوارد في الصفحة ٥٥ من كتابه المسألة اليهودية الذي نشرته مكتبة المعارف في بيروت ، وترجمه محمد عيتاني :

يقول ماركس :

« يجب أن لا نبحث عن سر اليهودي في دينه ، بل فلنبحث عن سر الدين في اليهودي الواقعي . ما هو الاساس الدنيوي لليهودية ؟ المصلحة العملية والمنفعة الشخصية . إذن فالعهد الحاضر بتحرره من التجارة والمال ، وبالتالي من اليهودية الواقعية والعملية إنما يحرر نفسه أيضاً .

والتنظيم الاجتماعي الذي يلغى الشروط الضرورية للمتاجرة ، وبالتالي يلغى امكانية المتاجرة ، سوف يجعل وجود اليهودي مستحيلاً ، والضمير الديني لليهودي سوف يتلاشى مثل بخار ثاقف في جو المجتمع الحقيقي » .

ويستطرد كارل ماركس فيقول في الصفحة ٥٦ من كتابه المذكور :

« أن تحرير اليهود فعلاً في معناه الاخير يكون في تحرير الانسانية من اليهودية . لقد تحرر اليهودي فعلاً ولكن على الطريقة اليهودية ، فاليهودي مثل الذي لا يحسب له حساب في فيينا هو الذي يقرر بقوته المالية مصير الملكة كلها . وأن اليهودي الذي قد يكون في أصفر الدول الالمانية محروماً من الحقوق هو الذي يقرر مصير اوروبا » .

ويسترسل كارل ماركس فيتساءل عن إله اليهود ويجيب على هذا السؤال في الصفحة ٩٥ من الكتاب ذاته فيقول :

« المال هو إله إسرائيل المطاع ، ويعتقد اليهود أنه لا ينبعي منه لا يلي إله أن يعيش . إن المال يخوض جميع آلة البشر ويحملهم سلماً . السفتحة هذا هو الإله الحقيقي لليهود » .

لا أعتقد ان هناك تحليلاً مشابهاً في واقعيته وجرأته لليهود كالتحليل الذي اوردته كارل ماركس أعلاه . فعقب ان قضى الرومان على آخر انتفاضة ثورية قام بها اليهود في فلسطين عام ١٣٢ بعد المسيح بزعامة الشائر اليهودي « بار خوشيا » حدموا القدس واداروا المحاريث في اطلاقها ومن ثم جعلوها مستعمرة رومانية دعواها « ايليا كابيتلوتا » وسبوا من تبقى من اليهود وساروا بهم يستعرضونهم « سرى في شوارع روما » ثم توزع اليهود على مختلف بقاع الارض .

منذ ذلك الحين حتى قيام جمعية «عشاق صهيون»، ومن ثم تأسيس «تيودور هرتز» للحركة الصهيونية نجح اليهود في مختلف بقاع الأرض نجاحاً واضحاً يتمثل في استخدام جميع الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية في خدمة رأس المال اليهودي وتشميره، وتتمدد اليهود تناصياً مطلقاً كل قضية تتصل بالقومية اليهودية وبنشره وطن قومي أو تأسيس دولة يهودية، وسعوا سعياً حثيثاً لامتلاك السيطرة على أكبر قدر ممكن من رأس المال العامل في العالم. فاحتكر اليهود في القرون الوسطى «الriba»، وكانوا يتناولون الفوائد الباهظة على ما يفرضونه من أموال، والرواية التمثيلية التي وضعها كسيير والمعروفة باسم «تاجر البندقية» تثير دليلاً على ما كان لليهود من اثر رهيب مخيف في حقل «الriba» وما فطرت عليه نفس اليهودي من وسائل شريرة بغية الحصول على المال. واليهود كانوا هم الذين يبدون امراء الاقطاع بالمال لقاء فوائد باهظة عما وصلت بذلك استخدام ما لهؤلاء من سلطة ونفوذ من اجل تثمير اموالهم وتنمية مواردهم.

وجاءت الثورة الصناعية في القرن السابع عشر، وخرجت المصارف الى الوجود وببدأت المؤسسات المصرفية تصبح عاملاً حيوياً في حقل الاقتصاد الوطني، وأخذ المال لا السلطة يتربع على عرش السلطان والنفوذ، فاتجه اليهود بروّوس، اموالهم الى المصارف والمؤسسات المصرفية الكبرى، وتكتنوا بذلك من جعل رأس المال اليهودي عاملاً خطيراً الشأن في الاقتصاد العالمي وهذا مما تشر النفوذ اليهودي في مختلف الدول وجعل للיהودية العالمية مكاناً مرموقاً في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فبرزت الى حيز الوجود بيوغات مالية يهودية ضخمة ذات نفوذ هائل جبار مدمر وأصبح اليهودي كرأس المال تماماً لا قومية له او دين او وطن، بل انما له مذهب واحد هو الاستفلال وتكديس الارباح.

ولهذا لاقت اول دعوة لتأسيس دولة اسرائيل في القرن السادس عشر فشلاً ذريعاً، وقد قام بهذه الدعوة يهودي عاش في ذلك القرن ويدعى «دافيد روبيني» كما وان النداء الذي وجّهه نابليون في ٢٠ نيسان عام ١٨٩٩ هذا النداء الذي طلب فيه نابليون من اليهود مساعدتهم المالية لقاء مساعدته لهم في تأسيس دولة في

فلسطين لم يلق من الاوساط اليهودية حاسماً، او قبولاً بل ثابع اليهود النهج السالف الذكر وابقوا رأس المال وتشيره المدف الاول لهم في الحياة، واتخذوا من تأليون موقف الحذر غير المتهور خشية ان تتضرر مصالحهم في بريطانيا وفيها وراء البحار، وتماشا الدخول في اية مغامرة سياسية قد تعرض رأس المال اليهودي العالمي الى خطر مؤكد او محتمل . وسبب الخاد اليهود لهذا الموقف وتناسيمهم للتوراة التي تحضهم على الرجوع الى فلسطين او بالاحرى إلى مملكتهم المزعومة المتدهة من التليل الى الفرات، لا يعود ابداً الى عدم رغبتهم في التذكر لما جاء في المرائي : « فلتتمنى عينك ان تستنك يا اورشليم ! » وانما يعود اولاً واخيراً الى كون اليهود قد ادركوا آنذاك ما لسوه وعرفوه في معاملاتهم المالية انه بامكانهم ان يسيطرموا على العالم بمجموع اقطاره ودوله عن طريق رؤوس اموالهم » لذلك ذهب بعض مفكري اليهود ، بغية اشاعة الطمأنينة لرأس المال اليهودي وفتح مجالات جديدة امامه ، اقول ذهب بعض هؤلاء المفكرين الى حد المطالبة بمحذف الترانيم القائلة بمجيء المسيح المنتظر من صلواتهم وتراتيلهم ، وكان على رأس هؤلاء المفكرين الفيلسوف اليهودي « موسى مندلسون » « وصموئيل هولدھايم » « داسحاقي جيجر » وقال هؤلاء ان تشتت اليهود تحت كل نجم هي ضرورة وحكة إلهية اراد الله من ورائهم ان يختلط اليهود ب مختلف الشعوب ليرشدهم الى وحدة الكائن الاعلى الذي هو إله اسرائيل . ولا شك ان القاريء ليدرك مدى التناقض الذي يكتنف هذه الاجتهادات الدينية والدين اليهودي بالذات الذي هو دين مغلق ، غير اننا ندرك ان هذه الاجتهادات الدينية لا ترمي الى ارشاد الشعوب ليؤمنوا بالله اسرائيل ، وانما ترمي اولاً واخيراً الى تكين شعب اسرائيل من استغلال الشعوب والسيطرة على رؤوس الاموال العامة في العالم .

وقام ايضاً بعض الزعماء السياسيين من اليهود وقادوا بأنه لا يجوز في كل الاحوال ان يطالب اليهود او يسعوا الى تأسيس دولة يهودية ، وأن على اليهود ان يختلطوا بسكان البلاد التي يعيشون فيها وان يندمجوا فيهم ، وان اليهودية دين

لَا قومية، وان اي شذوذ عن هذه القواعد س يجعل المسيحيين يرتباون بولاهم اليهود للدولة» وهذا ما سيرضى الجاليات والطوائف اليهودية الى كوارث حقيقة تنزل بهم وباموالهم .

وفي نهاية القرن التاسع عشر عندما است جمعية «عشاق صهيون» وأعقبها تأسيس جمعية «كاديناح» التي اوجدها صحفي يهودي يدعى «بيرنوم» و «بيرنوم» هذا كان اول من ابتكر كلمة «صهيونية»، وقف قسم كبير من اليهود معارضين دعوات هاتين الجمعيتين بتأسيس دولة يهودية في فلسطين، وكانت اشد المعارضين لهذه الدعوة المتمولون من اليهود الذين دفعوا باحد اليهود الى تأسيس جمعية تناهض هاتين الجمعيتين وتعرف بجمعية «ابناء موسى» وقد قاومت هذه الجمعية دعوة الجمعيتين المذكورتين بضراوة، ونادت بأن الصهيونية حركة فكرية روحية وليس بحركة مادية .

وحب المال رغبة غريزية جامحة في نفس اليهودي ، فلقد سبق للسيد المسيح ان حمل على اليهود في هذا الشأن حمة شعواء عنيفة، إذ ورد في الاصحاح الحادي عشر العدد ٤٢ - ٤٣ من الجليل لوقا ما نصه :

«ولكن ويل لكم ايها الفريسيون لانكم تعشرون النفع والذائب وكل بطل، وتعجازوون عن الحق ومحبة الله» .

كما وأشارنا ذكر ولا شك ما فعله السيد المسيح عندما دخل الميكل ، هذا الميكل الذي يعتبر الرمز القومي الديني لليهود فوجد باحاته تفص بالصيارة وبالباعة فأقدم على طرد هؤلاء قائلاً :

«مكتوب ان بيقي بيت الصلة واتق جعلتموه مغاردة لصوص» (وهذا القول وارد في الجليل لوقا الاصحاح التاسع عشر العدد ٤٦) .

ويذهب حب المال اليهودي الى حد لما ياخه السرقة ديناً ، نعم لما ياخه السرقة والفسد ديناً، ولقد ورد بذلك تحليل واضح في التلمود :

«إن الرابي (المعلم) صموئيل كان رأيه أن سرقة الاجانب مباحة ، وقد اشتري هو نفسه آنية من الذهب كان يظنها الاجنبي نحاساً ، ودفع ثمنها اربعة

در اهم فقط وهو ثمن بخس وسرق در ما آخر من البائع».

ونحن نستطيع ان نفهم بسهولة ويسر الاسباب التي تجعل اليهودي يرى له في المال لها واحداً ووحيداً على حد تعبير كارل ماركس، فالدين اليهودي الذي جعل من العدوان العنصر الاسامي والوجه للقومية اليهودية ، قد جعل لليهودي بالتالي فرائس للاضطهادات وقطبهاً جاذباً لشقي الكوارث والمصائب ، واخيراً شعباً محترقاً لدى الشعوب والأمم الأخرى . ولما كان من أهم خصائص الحياة وميزاتها أنها تدفع بالفرد والشعب الى تأكيد وجوده احياناً عن طريق السلطة السياسية ، وأخرى عن طريق المال ، ولا كان الشعب اليهودي قد اعلنها حرفاً شعواء على الشعوب والأمم الأخرى منذ ان عرفت اليهودية واليهود لها ولهم وجوداً في التاريخ البشري ، لذلك فان اليهود كان لا بد لهم ان يعنوا بسلسلة طويلة من المزائيم والفشل في الحرب التي اعلنوها على الانسانية جماء . والشعب اليهودي كما نعلم شعب نسيط يتبعاً وراء الطموح حدود الطمع ، لذلك اتجه اليهود بعد ان لاقوا المهزيمة تلو المهزيمة في ميدان السلطة السياسية الى ميدان المال . وركزوا كل مجهوداتهم على ان يصبحوا القوة المالية الاولى في العالم ، او بالاحرى شعب الله الختار لجمع المال وتكتيشه واستغلال بقية الشعوب وسرقة الامم الأخرى ، فالدين الذي يرى في العدوان امراً مشروعـاً يعتبر السرقة والاستغلال والتسلیس والفسق وجائب ساوية وفرض الهيبة . لذلك كله وقف المليون اليهود في القرن السادس عشر فالسابع عشر فالثامن عشر ضد كل حركة قومية يهودية تستهدف انشاء وطن ودولة قوميين ، وترمي الى تحويل المجهودات اليهودية عن تدريم النفوذ المالي العالمي لليهود الى مجالات السياسة ودهاليزها بغية تحقيق الوطن القومي اليهودي ، وتجسيد الدولة القومية اليهودية ، إذ كان الرأسماليون اليهود يرمون آنذاك خاصة عقب النجاحات الباهرة التي حققوها في ميدان معركة كسب المال وتشييره الى السيطرة على العالم سيطرة كاملة شاملة مطلقة ، وكانوا يعلمون انهم مق وصلوا الى هذا الهدف ، فان الوطن القومي والدولة اليهوديين سيتحققان آلياً ودونما عناء . والحق يقال

ان الماليين اليهود كانوا، كا اثبتت المستقبل، على صواب في نظرتهم هذه، ولما كان الرأي المصيب هو الذي يحصد ذاته ويفرهن نفسه على المستقبل فرضاً لذلك خنقـت الحركات القومية اليهودية السابقة لحركة «تيودور هرتزل»، وسـنـرى حينـا نـبـحـثـ في الصهيونية مدى المـاـهـةـ التي اـسـهـمـ بهاـ المـالـيـوـنـ الـيـهـوـدـ فيـ حـرـكـةـ هـرـتـزـلـ هذهـ . تـابـعـ لـيـهـوـدـ مـنـذـ القـرـنـ السـادـسـ عـشـرـ حـقـ نـهاـيـةـ القـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ حـرـبـيهـ فيـ مـيدـانـ الـمـالـ، وـرـكـزاـ فيـ بـادـيـهـ الـاـمـرـ نـشـاطـاتـهـ عـلـىـ الـاعـمـالـ الـمـصـرـفـيـةـ، وـاعـمـالـ الـبـورـصـ الـدـولـيـةـ ، إـذـ انـهـ كـانـواـ يـعـلـمـونـ حـقـ الـعـلـمـ أـنـ مـنـ يـسـيـطـرـ عـلـىـ الـمـالـ يـسـيـطـرـ بـالـتـالـيـ عـلـىـ الـصـنـاعـةـ، وـأـنـ مـنـ يـتـحـكـمـ بـالـمـالـ يـتـحـكـمـ بـالـتـالـيـ عـلـىـ جـمـيعـ فـعـالـيـاتـ الـاـقـتـصـادـ الـوـطـنـيـ وـالـعـالـمـيـ . فـنـشـأـتـ سـلـسـلـةـ ضـخـمـةـ منـ الـبـيوـتـ الـمـالـيـةـ الـيـهـوـدـيـةـ وـطـوـقـتـ هـذـهـ السـلـسـلـةـ الـعـالـمـ يـحـمـيـعـ قـارـاتـهـ وـشـدـقـهـ إـلـىـ النـفـوذـ الـيـهـوـدـيـ شـدـأـ مـحـكـماـ وـوـثـيقـاـ، فـاـصـبـحـ الـيـهـوـدـيـ هوـ الـذـيـ يـقـرـرـ وـيـرـسـمـ اـتـجـاهـاتـ الـاـقـتـصـادـ الـعـالـمـيـ فيـ جـمـيعـ حـقـولـهـ ، وـغـداـ الـمـالـ الـيـهـوـدـيـ عـنـصـرـاـ فـعـالـاـ وـعـامـلاـ قـوـيـاـ فيـ توـسيـعـ مـجـالـاتـ الطـمـعـ الـبـشـريـ، فـظـهـرـ الـاـسـتـعـمـارـ بـوـجـهـ الـبـشـعـ وـاـنـشـأـتـ الـمـسـتـعـمـراتـ ، وـنـحنـ اـذـ مـاـ رـاجـعـناـ عـصـورـ الـاـسـتـعـمـارـ يـتـضـعـ لـنـاـ اـنـ الـاـسـتـعـمـارـ وـلـدـ فـيـ الـقـرـنـ ذـاـتـهـ الـذـيـ وـلـدـ فـيـ الـانـظـمـةـ الـمـصـرـفـيـةـ، وـانـ الطـابـعـ الـبـرـجـواـزـيـ لـلـاـسـتـعـمـارـ لمـ يـتـجـاـوزـ الـمـئـةـ سـنـةـ، اـذـ سـرـعـانـ مـاـ غـداـ الـخـابـعـ الرـئـيـسيـ لـلـاـسـتـعـمـارـ طـابـعاـ رـأـسـمـالـيـاـ بـكـلـ مـاـ لـكـلـمـةـ الـرـأـسـمـالـيـةـ مـعـنـىـ وـمـفـهـومـ . كـاـ وـاـنـاـ نـخـنـ مـعـشـرـ الـعـربـ لـنـذـكـرـ بـأـلـمـ اـنـ حـصـةـ مـنـ اـسـهـمـ قـنـاةـ السـوـيـسـ قدـ اـشـتـرـتـهاـ بـقـرـضـ يـهـوـدـيـ، وـلـنـذـكـرـ اـيـضاـ اـنـ روـتـشـيلـدـ كـانـ لـهـ الـاـثـرـ الـبـالـغـ فيـ دـفـعـ بـرـيـطـانـيـاـ إـلـىـ اـحـتـلـالـ مـصـرـ، وـهـذـهـ حـقـيـقـةـ تـارـيـخـيـةـ لـاـ يـمـكـنـ انـكـارـهـاـ .

لقد كان كارل ماركس مصيباً كل الصواب عندما نادى بتحرير العالم من اليهودية ، اذ رأى انه لا سبيل الى تحرير العالم من النظام الرأسمالي البشع الا عن طريق تحرير العالم من اليهودية . فالرأسمالية واليهودية هما القاعدتان اللتان ارتكز ويرتكز اليها اليوم الاستعمار الذي يعتبر أبغض مظاهر الرأسمالية وأشد أمراضها فتكاً بالكرامة الإنسانية .

نمت الرأسمالية اليهودية العالمية وتضخمّت، وسيطرت البيوتات المالية اليهودية على الصناعات في العالمين القديم والجديد، وغدا اليهودي هو الذي يقرر سعر «الأسهم»، وهو الذي يحدد أسعار المنتجات من بضائع وسلع، وهو الذي ينشئ المؤسسات والمشروعات ويهدّمها، فكل مشروع لا يمكن أن يخرج إلى الوجود إذا لم تتوافق عليه البيوتات المالية اليهودية، فتمده بالقروض والأموال، أما إذا خرج مشروع ما دون رغبة اليهودية العالمية فالبورصة كفيلة بهدمه وتدمره أو يجعله لقمة سائفة للיהودية العالمية (ولا أريد أن اتوسّع في شرح هذا الموضوع، ولا شك أن القارئ المطلع عن المبادئ الأولى لانظمة البورصة يعرف ما أعني) وهكذا أغدا المال اليهودي بتشابه الاوكسجين للدم الذي يجري في شرايين النظام الرأسمالي، وبلغ النفوذ اليهودي مبلغاً جعل «بن غوريون» رئيساً صغيراً حبيلاً ممسوحاً في العالم يرد على «ترومان» رئيس الدولة الكبرى «العظمى» في إنسانيتها – الولايات المتحدة الأمريكية عندما طلب ترومان منه في ٢٩ أيار ١٩٤٩ بذكرة قوية اللهجة أن يعيد مئتي الف لاجئ عربي إلى ديارهم، أقول: «بن غوريون» يرد على «ترومان» الذي سيبقى اسمه ملطخاً بالعار، قائلاً :

«ما دام الصلح لم يتم مع العرب فلن يُسمح لاعداد كبيرة من اللاجئين بالعودة، إن الولايات المتحدة بلد قوي، أما إسرائيل فبلد صغير وضعيف، إننا قد نsucc و لكننا لن نفتخر».

ويصف السفير الأميركي في إسرائيل المستر مكدو فالد تراجع الولايات المتحدة التام في وجه رسالة بن غوريون فيقول في مذكراته : «إن المذكورة الأميركيّة التالية إطّرحت عام الاطراح اللهجة الصارمة التي صيفت بها سالفتها، لقد كفت واثنتن أكثر فأكثر عن وضع القوانين لتل أبيب».

(من كتاب هكذا يضيع الشرق الأوسط صفحة ٢٧٨ - ٢٧٩ لالفرد طيليتال - ترجمة دار العلم للملائين .)

وأوضح أمام القارئ الكريم أثر النفوذ اليهودي في العالم الرأسمالي سائق الفقرة التالية من الكتاب ذاته ، ومن الصفحة ٢٢٩ والتي يقول فيها « الفرد ليلينتال » ما نصه :

« وحق الشركات الأمريكية ذات المصالح الاقتصادية في الشرق الأوسط ، بالرغم من مادراتها التام ان رؤوس اموالها لا بد من ان تتأثر بموقف الولايات المتحدة إزاء اسرائيل ، ففضلت في حيثها امكانها ان تبقى بعيدة تماماً . لقد شعرت صغرى هذه الشركات بأن على الشركات الكبرى نفسها تتصدى » ، ولكن هذه (الشركات الكبرى) كانت تخشى أن تدلي بآرائها .

ولنسمع الآن ما ي قوله الدكتور رالف بانش مساعد سكرتير هيئة الأمم المتحدة ، وقد ورد قوله هذا في الكتاب الآتف الذكر وفي الصفحة ٢٢٤ منه :

« حق الفكاهة فيما يتعلق بفلسطين تثير الجدل » .
ولنسمع ما ي قوله الجنرال « فان بانكه » الدانماركي وكبير المراقبين السابق للهداة (المورد ذاته ٢٧٢) .

« كنت مياً جداً الى اليهود عندما وصلت الى فلسطين ، ولكن قراء الصحف الدانماركية لا يعطون صورة صادقة عما يجري هناك ، إن وجهات النظر اليهودية هي السائدة » .

ولنتمعن بهذه الكلمات القليلة التالية التي تشعرنا بالنفوذ الرهيب الخطير للرأسمالية اليهودية العالمية في زعيمة العالم « الحر طبعاً » الولايات المتحدة الأمريكية .

كتبت فرجينا جيلدرسليف وهي عميدة من عمد الجامعات الأمريكية تقول :
« ان عجز الصهاينة عن الصبر على اي نقد غير ملائم يوجه اليهم او الى اسرائيل من غير ان يصبوا على الناقد جام الطعن الشخصي وينسبوا اليه دوافع خسيسة واحقاداً ، ان هذا العجز سوف يعيق الدراسة العقلانية لمشكلات الصهاينة والمشكلات الاسرائيلية . اني بوصفني اميركية صالحة انتقد في حرية » .

وعلى رؤوس الاشهاد، اعملاً تقوم بها بلادي نفسها إذا اعتدت أنها خاطئة .
واني كذلك اعتقد في بعض الاحيان اعملاً تصدر عن بلاد اسلامي القدماء انكلترا وفرنسا ، فلماذا لا أكون حرّة في انتقاد اعمال اسرائيل بالطريقة نفسها ؟ لماذا يجب ان تكون تلك الدولة ، وذلك الشعب وحدهما من بين دول الارض وشعوبها ذوي حرمة قديسية فليس من حق أحد ان يمسها » .

يتضح من قول هذه الاميركية المتحررة ان الرأسمالية اليهودية العالمية لا تكتفي باستغلال وختق حريات الشعوب في المستعمرات ، وانما تتجاوز هذا الامر الى استغلال وختق حريات شعوبها بالذات .

واخيراً للتدبر كلمات وايزمن اليهودي المتدين اي الصهيوني ، لنرى الى اي مدى بلغ تأثير المالية اليهودية العالمية ونقوذها . يكتب « وايزمن » في مذكراته يقول :

« نحن اليهود كنا نسمى لاقامة دولة لنا في فلسطين وقد انتدبنا (لاحظ هم انتدبوا) الانكليز لحكمها ، واستعننا في هذا بعصبة الامم ، فتحن الدين سلنا للانكليز موقتاً فلسطين ، وليس الانكليز هم الذين وهبوا لنا بعد ذلك » .

لا شك ان القاريء الكريم يدرك مغزى كلمات وايزمن هذه ، فوايزمن يعني انه المالية اليهودية العالمية هي التي تحكم بريطانيا ، وتوجه عصبة الأمم وليس بريطانيا التي كانت عظمى آنذاك هي وعصبة الامم اللتان وهبتا لليهود فلسطين ، وقد جاء لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية ليؤمن على كلام وايزمن ويقول : « لقد تحققنا في عام ١٩١٧ أن من الضروري لنا ان نحصل على كل مساعدة يمكننا الحصول عليها ، وقد وجدنا من الواجب علينا لهذا السبب ان نكسب ود اليهود » .

وهكذا ايها القاريء مثلاً آخر على مدى تعاون الاستعمار ، ورببيته المالية اليهودية العالمية ، إذ يقول أحد الكتاب الانكليز ما ترجمته : « كان يرى الانكليز لبان الحرب العالمية الاولى أن اليهود ، مما يعانونه من اوضاع سيئة في مختلف البلدان ، وما لديهم من رفوس اموال كبيرة هم خير من يكون آلة للانتداب البريطاني » .

على فلسطين ، وهذا ما جعل البريطانيين يتبنون قضيتهم ، ويستخدمونهم تحكمة لنيل الانتداب .

هـ - الحركة الصهيونية والاستعمار في العالم العربي

قلت فيما تقدم ان الماليين اليهود خنقوا في السابق كل حركة قومية يهودية كانت ترمي الى انشاء وطن قومي ودولة يهوديين ، وذلك كي يركزوا مجهوداتهم على إنهاء رؤوس اموالهم ليدعموا سيطرتهم على العالم . وعندما تأكد الماليون اليهود من أن سيطرتهم على الاقتصاد العالمي أصبحت كاملة شاملة ، وان نفوذهم السياسي نتيجة لذلك بات رهيباً مدمرأً ، وانه لن توجد بعد اليوم دولة رأسمالية يمكن ان تعصي لهم امراً ، عندئذ إتجه الملايين اليهود بكل قواهم نحو تأسيس الوطن القومي اليهودي وتجسيد الدولة اليهودية في فلسطين . ولقد بدأ في نهاية القرن التاسع عشر ان الخلافات بين المالية اليهودية العالمية وبين الحركات القومية اليهودية التي تجمعت اخيراً في الحركة الصهيونية قد اخذت بالتلامي والزوال ، وكان من اهم اسباب الاتفاق بين الصهيونية والمالية العالمية اليهودية إخلال الامبراطورية العثمانية ، وتدهور الاحوال الاجتماعية والاقتصادية في بلاد العرب إبان الحكم التركي ، وتطلع الدول الغربية الممثلة ببريطانيا وفرنسا الى تصفية تركية الرجل المريض المحتضر ، الخلافة العثمانية والتحقق من وجود البترول في مناطق الموصل وبقية الأقاليم العربية الاخرى ، وصيرورة مناطق الشرق الاوسط مجالاً طيباً او بالأحرى ممتازاً لاستثمار رؤوس الاموال اليهودية العالمية ، كل هذه الامور جعلت دعوة «تيودور هرتزل» الى تأسيس دولة يهودية في فلسطين تلقى الأذن الصاغية من الرأسمالية اليهودية العالمية ، وتنطلق كالصاروخ الى افتدة بيوتات المال اليهودية وتعدها الى جاهير الشعب اليهودي ، ومن ثم الى الدول

الأوروبية التي كانت تتلهف على تصفية فرقة « الرجل المريض »، وتسعى جاهدة لترزنه . وقد وجد الاستعمار البريطاني الفرنسي في الحركة الصهيونية حلية او رأس جسر تعبّر عليه الى تحقيق اغراض الرأسمالية الغربية التي هي في الاصل اغراض المالية اليهودية العالمية . فكان تشارل هنري تشرشل اول انسان غير يهودي قام بالخطوة العملية الاولى على الطريق الى تأسيس الدولة اليهودية ، فاستحصل من السلطان عبد الحميد على فرمان يكفل لليهود المساواة في الحقوق المدنية وبقية سكان الامبراطورية العثمانية ، واعقبت هذه الخطوة خطوة أخرى خطأها على هذا السبيل السير « مويس منتيفيوري » ، اذ تمكن بالتعاون مع الحاخام الانكليزي الأكبر « ناثان آدلر » من جمع ثلاثين ألف جنيه استرليني ، كما وحصل على فرمان من السلطان السعيد الذي عبد الحميد يخول بموجبه اليهود حق تملك الاراضي في فلسطين ، واعقب هاتين الخطوتين العميلتين عقد اول مؤتمر صهيوني في مدينة « بال » عام ١٨٩٧ ، وترأس هذا المؤتمر تيودور هرتزل وأسفر الاجتماع المؤتمرين عن الموافقة على المنهاج التالي للحركة الصهيونية :

- ١ - تشجيع الاستعمار اليهودي في فلسطين بطريقة منظمة .
- ب - تنظيم الحركة الصهيونية والحادي الهيئات اليهودية المتفرقة في شتى انحاء العالم .

ج - ايقاظ الوعي القومي في الفرد اليهودي .

- د - القيام بمساعي جديدة لدى مختلف الحكومات للحصول على موافقها على أهداف الحركة الصهيونية .

وسرعت المالية اليهودية العالمية الى معاضدة هذا المؤتمر وتدعيم قراراته ، فامتدت الحركة الصهيونية بـ ميليونين من الجنسيات الاسترلينية كانت النواة لمصرف صهيوني يرمي الى الاصحاح في انشاء المستعمرات الزراعية في فلسطين وتوطين اليهود في هذه المستعمرات .

وقد جعل التوطن في المستعمرات وفق المنهاج التالي :

- ١ - التوطن في المستعمرات الزراعية .

ب - التوطن في المستعمرات الجماعية ذات الملكية المشتركة .
ج - توطن أصحاب الملكيات الزراعية الصغيرة .
وعقب ان انتهى المؤتمر الصهيوني عاد هرتزل فخوراً إلى «فيينا» وادلى
مزهواً بالتصريح التالي :

« لو طلب اليّ تلخيص اعمال مؤتمر « بال » فسألي اقول لا بل انا دyi على
رؤوس الاشهاد ، أنني است الدّولة اليهودية » ، وقد يثير هذا القول حاسقة من
هذا وهناك ولكن العالم سيشهد بعد خمسة اعوام او بعد خمسين عاماً ، ما في ذلك
من شك ، قيام الدولة اليهودية » .

هذا ما قاله هرتزل ولقد تحققت بالفعل نبوءته إذ ان العالم شهد قيام دولة
اسرائيل عقب المدة التي حددها وهي خمسون عاماً (١٨٩٧ - ١٩٤٨) مؤتمر بال
قيام دولة اسرائيل) غير ان اليهود مع ما يتصفون به من ذكاء او بالاحرى
خبث ودهاء قد ضربوا عرض الحانط ببساط الحقائق ، وهي ان الشعوب العربية
التي تشكل الأمة العربية هي امة تخضع ايضاً لقوانين الحياة ، هذه القوانين التي
تقول ان الأمة تغفو لتسقط ، كما وأعيبت ابصارهم عن واقع اليقظة العربية التي
بدت تباشيرها في الثورة العربية الكبرى ، والتي اخذت تتألق من على حبال
المشانق في القدس ودمشق وبيروت ، والتي مات شهداء السادس من ايار
ونورها يشع وضاءً وضاحاً من عيونهم ، ويتدفق كالسيل المادر على ألسنتهم)
صارخاً :

« فلنت وتحي الأمة العربية » .

كل هذه الحقائق نسيها اليهود وتناستها الصهيونية ، غير عالم ان بدراة القومية
العربية قد بدأت تنمو ، وان هذه البدراة ستتصبح شجرة باسقة اقوى من الموت ،
لأنها جوهر الحياة ، لقد ربح الصهيونيون الجولة الاولى نتيجة للانظمة الرجعية
التي كانت تسيطر على كل الاقاليم العربية . أما اليوم ، وبعد ان دمرت هذه
الانظمة في كل من الجمهورية العربية السورية والجمهورية العربية المتحدة
والجمهورية العراقية ، وسندمرها في جميع الاقاليم العربية للباقيه الاخرى ، فاننا

منقول لليهود والصهيونية ان الدولة العربية الاتحادية ذات المحتوى الاشتراكي هي في الطريق لتدمير ما يعرف اليوم « باسرائيل » ودلك ببنائها دكما ، وهذا الامر محظوظ كالقدر .

لقد تم « هرزل » ما أراده، وتم ذلك نتيجةً للتواافق بين اطياف المآلية اليهودية العالمية والحركات القومية اليهودية والاستعمار، وأوجد الوطني القومي وأسست دولة إسرائيل، وأنا هنا أريد أن أتنبأ للحركات القومية اليهودية بنبوة كالنبيوطة التي تنبأ بها هرزل وبنبوة في هذه قد تثير السخرية والضحك في ارجاء « إسرائيلية » ولتكنفي والتي كل الثقة من أنها ستتحقق :

انني اقول لكم ايها القوميون اليهود ان المالية اليهودية العالمية ستتخلى عنكم قريباً وقريباً جداً، لأن التوافق بين رؤوس الأموال اليهودية ودولة اسرائيل قد بدأ بالثلاثي والزوال ، فلم تعد اسرائيل كما ارادتها المالية اليهودية العالمية قاعدة انطلاق لاستثمار الشرق العربي وجنى الارباح وتكتديسها ، بل أصبحت سجناً رهيباً للمالية اليهودية العالمية بعد ان فرضت الدول العربية اليوم (والدولة العربية الاتحادية غداً) الحصار الاقتصادي على اسرائيل ، وحرمت التعامل مع أية شركة او مؤسسة تنشط او تعمل في الاراضي الفلسطينية المحتسبة . ان المالية اليهودية العالمية ستعود قريباً وقريباً جداً اذا بقي للنظام الرأسمالي من اثر إلى انتهاج السياسة ذاتها التي انتهجهتها بين قرنين السادس عشر والقرن التاسع عشر ، وهي وضع كل الظروف السياسية في خدمة رأس المال .

اننا نعلم اسباب رغبتكم الجائحة ایها القوميون اليهود في عقد صلح مع العرب، ونعلم اسباب خطف الدول الرأسمالية علينا عقد مثل هذا الصلح، ونعلم أن منبع هذه الاسباب جميعاً هي المالية اليهودية العالمية التي احبطت العرب جميع خططها وستقضي عما قريب الدولة العربية الاتحادية المتعددة من المحيط الاطلسي حتى الخليج العربي على الاستعمار والمالية السعودية العالمية، واسه اثنا عشر

اننا نحن معاشر القومين العرب الواقعين في اشتراكينا، والمؤمنين بأن المرحلة القومية مرحلة جوهرية من مراحل الطريق الى الدولة العالمية، لنعلن على

رؤوس الاشهاد اتنا قد اعلنها حرباً لا هوادة فيها ، او لسین ضد الاستعمار الممثل في الرأسمالية الدولية والماليـة اليهودية العالمية واسـرائيل ، كـما وـانـا لن نـقـبـلـ في المـرـحـةـ الـحـالـيـةـ منـ مـراـحـلـ تـبـلـورـ القـومـيـةـ العـرـبـيـةـ ذاتـ الـاهـدـافـ الاـسـتـراـكـيـةـ بـقـيـامـ أـيـةـ حـرـكـةـ قـوـمـيـةـ فـيـ عـالـمـ العـرـبـيـ ماـ عـدـاـ حـرـكـةـ القـوـمـيـةـ العـرـبـيـةـ . وـبـعـدـ لـيـومـ لـأـقـومـيـةـ فـيـنـيـقـيـةـ وـلـأـقـومـيـةـ يـهـودـيـةـ وـلـأـسـرـايـلـ ، بـلـ قـوـمـيـةـ عـرـبـيـةـ تـجـهـ عـقـبـ قـبـلـورـهـاـ إـلـىـ بـنـاءـ الدـوـلـةـ الـعـالـمـيـةـ الـأـتـحـادـيـةـ .

فهرس

العقائد والأخلاق	٧
١ - مدخل ٢ - الأخلاق والحضارة الغربية في مسكيها .	
الرأسمالية	٢١
١ - مدخل تاريخي بـ فلاسفة الرأسمالية ج - ما هي الرأسمالية د - حاولات ولكتها فاشلة ه - احتكار واحد و - ابقاء المراكز الاستراتيجية في ايدي أمينة .	
الاشتراكية	٦٥
١ - مدخل تاريخي ب - رواد الاشتراكية ج - في فشل رواد الاشتراكية د - كيف ولماذا نشأت الاشتراكية؟ ه - ما هي الاشتراكية؟ و - بين اقتصاد الدولة ورأسمالية الدولة ز - الاشتراكية في المجتمع القومي .	
الشيوعية	٩٧
١ - مدخل ب - فلسفة هيغل . ج - دينالكتيك هيغل . و - قوانين الدينالكتيك الثلاثة ز - الماركسية ح - المادية الدينالكتيكية ط - اخلاقية المادية الدينالكتيكية ي - المادية التاريخية .	
الصهيونية	١٣١
١ - أهناك فرق بين اليهودي والصهيوني؟ ب - لماذا اضطهد ويعذب ويضطهد اليهود؟ ج - المسبعين ثورة على اليهودية د - اليهودية في خدمة رأس المال ه - الحركة الصهيونية والاستعمار في العالم العربي .	